المنحة الدهرية

في

تخطيط مدينة الإسكندرية

تأليف

محمد مسعود

أحد معلمي مدرسة رأس التين الأميرية

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء الكتاب

إلى

من شدَّت ورق فضائله على أغصان مجده

وهبت نسمات القبول من مطلع سعده

المتربي في حجر الفصاحة

والمتغذي بلبان السماحة

صاحب العطوفة

- علي باشا مبارك -

ناظر المعارف العمومية

obeikandl.com

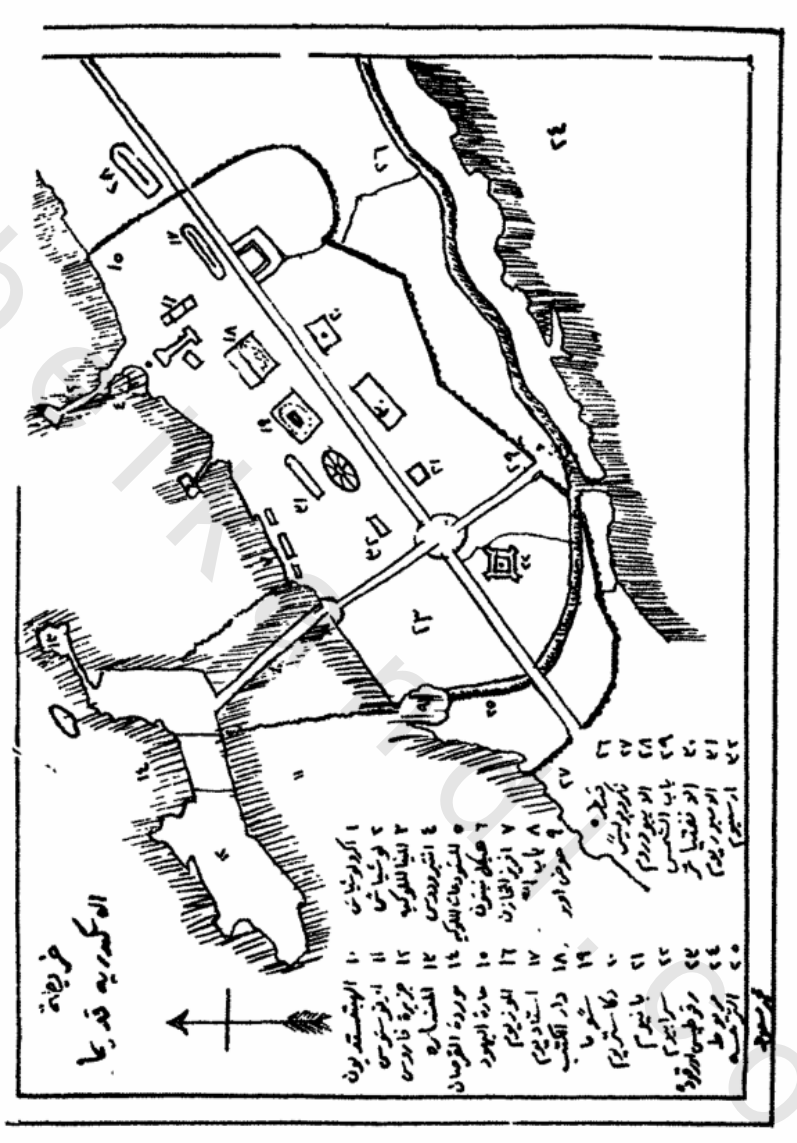
خريطة
الاسكندريه قديما

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك، مسير الفلك ومجري الفلك، سبحانه أنشأ هذا الوجود طبق مراده، وأورث الأرض من شاء من عباده، فخططوا المدن والثغور، وأسسوا الهياكل والقصور، وأتقنوا ذلك غاية الإتقان، حتى نادى لسان حاله ليس في الإمكان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أسس قواعد الحق وأعلى مناره، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيله واقتفوا آثاره.

وبعد فإنه لما كان البحث عن الآثار القديمة ثمرة فن التاريخ الذي اهتم به المتقدمون وكان يهمنا نحن الإسكندريين أن نعرف ما كان ببلدتنا الزاهرة من الآثار الباهرة التي شيدتها الأولون ولقدم عهدها بحث عن حقيقتها المتأخرون ألزمت نفسي أن أجمع كتابا أذكر فيه ما أثبته مشاهير العلماء من الأقوال التي أماطت عن ذلك حجب الريبة وبددت سحب الشك عن أفق تلك المسائل الغريبة وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد وتوكلت على رب العباد وكشفت القناع عن محيا تاريخ الدول الثلاثة اليونانية والرومانية والعربية وترجمت فيها عما يتعلق بذلك من العبارات الزائفة والجمل الفائقة وألفت هذا الكتاب المشتمل على ما يتشوق للوقوف عليه كل من تزينت سماءُ عقله بنجوم الأدب واعترف بما لمطالعة التاريخ من المزايا وبلوغ الإِرب.

وسميتُه بالمنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية.

obeikandl.com

وكان ذلك في عهد من بزغت شموس مراحمه على الديار المصرية، وفاضت آثار مكارمه على من فيها من السكان والرعية. فأصبحت مصر بهمته كالروض الوريق، عزيزنا ووالي نعمتنا توفيق، متع الله بوجوده كل الأنام، وأتحف بطالع سعده الأيام، وحفظ أنجاله ورجاله، بجاه خاتم الرسالة.

آمين

obeikandl.com

لمحة عامة

إن تأسيس مدينة الإسكندرية متأخر جدًّا عن تاريخ تأسيس مدن مصر الأصلية الموجودة على شاطئ النيل وفي أثناء القرون العديدة التي ارتفعت فيها علوم مصر وصنائعها إلى أعلا ذرى التحسين والإتقان، كانت بقية سكان الدنيا المعلومة سابحة في بحار الجهل بالكلية، هائمة في أودية التوحش والهمجية. ومع ذلك كان أهل آسيا يغيرون على وادي النيل للاستيلاء عليه طمعا في التمتع بخيراته ومحصولاته والأثيوبيون الحبشان يجتازون الشلالات رجاء أن تثبت أقدامهم في أراضي إيزيس وأوزيريس «معبودي مصر» وقد اتسع نطاق التمدن في هذه الأعصر وانبعثت أنوار العلوم في مطارح أشعتها وأخذت هذه البلدان السعيدة في تشييد المباني العظيمة والآثار الفخيمة التي ما زالت إلى الآن على حالتها الرفيعة لا تبالي بكر الأعوام ومر الدهور والأيام ومن هذه المباني مدن منفيس وهليوبوليس وصاو منديس التي شيدت قبل الإسكندرية بعهد بعيد وهذه الأخيرة هي المتميزة عن تلك المدن بحفظ ما مر فيها من الحوادث ويخصها التاريخ بأحسن الذكر وأبلغ الوصف ولو تأمل الإنسان إلى أخبار تأسيسها وأهميتها في مركز الدنيا القديمة وأطلع على ذكر نضارتها وحضارتها وأنها كانت مقتبس أنوار العقول كما دلت على ذلك الأخبار لانجذب عقله إلى استحسان هذه العاصمة واختيارها عن سواها وهي في الحالة الراهنة بالنسبة لحالتها السابقة كميت كان في حياته حسن السيرة فحسن أخباره يجعلنا نعتبره كأنه حي موجود بيننا كيف لا واستماع أخبار ما كانت عليه هذه المدينة من إتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق أبهى وأرق من

مشاهدة مبانيها التي نراها الآن بالعيان هكذا كانت الإسكندرية التي كانت متزينة الأرجاء بالهياكل والأعمدة والمسلات إلى غير ذلك من المباني المتينة والآثار الفخيمة وبعد أن ارتفعت في عهد الرومانيين والبطالسة إلى أوج التمدن والاعتبار رأت سقوط هياكلها وهبوط أصنامها لما نشأ في هذا الوقت بها من الاضطهادات الدينية والفتن الملية التي استدامت إلى القرن الرابع فنشر طيودوز الديانة المسيحية في آفاق المشرق ووطدها فيها ولما استولى المسلمون بعد ذلك بقرنين ونصف على مصر جعلوا الكنائس مساجد وهدموا غالب الأبنية لمصلحة لهم ومن هذا العهد إلى أوائل القرن التاسع عشر من الميلاد كانت الإسكندرية كأنها لم تكن قبل بل طوي ذكرها كطي السجل للكتاب وذلك لما تراكم على أطلالها من الرمال البحرية التي أدرجتها في طي الخفا بعد أن نالت من التمدن حظاً وافرًا لم تبلغ شأوه مدينة قط في ذلك العهد وصارت من جرىّ ذلك كمقبرة فسيحة الجوانب شاسعة الأرجاء غيبت في بطونها تلك الفواضل النفيسة كما تغيب في المقابر الحقيقة أعضاءُ الإنسان.

وكان بقرب الإسكندرية قرية صغيرة على ساحل البحر وعلى البرزخ الضيق القائم مقام الهبتستديون الذي كان موصلًا جزيرة فاروس بالأرض القارة وكانت هذه القربة منفصلة عن المدينة القديمة بعدة أسوار متينة وكانت تسمى بالإسكندرية أيضاً ولما دخلها الفرنسيون كانت ذات منظر تتخطاهُ العين حيث كانت أبنيتها على النمط القديم الذي لا رونق له ولا تنميق فيه مع ضيق طرقها الغير مبلطه المشحونة بالقاذورات وقلة سكانها الذين كان يبلغ عددهم ثمانية آلاف نفس فقط ومع ما دهمها من هذه الخطوب المهمة والأخطار المدلهمة كانت لم تزل بلدة لها في ميدان التجارة أوفر نصيب قهراً عن

مجاراة مدينتي رشيد ودمياط الموجودتين على مصبي الفرعين الغربي والشرقي من النيل لها وذلك لما لوضع مياها الطبيعي من المزايا العظيمة التي جعلتها معدودة من أعظم موانى البحر الأبيض المتوسط.

وبعد انجلاء الفرنسويين عن مصر بخمس سنين رجع عدد سكان الإسكندرية هابطا إلى ٥٠٠٠ نفس سنة ١٨٠٨ وذلك لعدم وجود الماء الصالح للشرب فيها وفي سنة ١٨١٨ في ولاية المغفور له الحاج محمد علي باشا بلغ عدد سكانها ١٢٠٠٠ نفس وفي سنة ١٨٢٥م أعني بعد إنشاء ترعة المحمودية تضاعف هذا العدد بسبب جري الماء العذب تحت ربوعها وبلغ عدد سكانها في سنة ١٨٤٩م نحو ١٠٠٠٠٠ نفس أما الآن فيزيد سكانها عن ٢٥٠٠٠٠ نفس منهم ٦٠٠٠٠ أوروبي وقد نظفت الآن حاراتها وبلطت شوارعها وحسنت بما يجعلها من عداد المدن الأفرنجية ورتبت بحيث صار يصعب على الغريب الذي زارها لأول مرة أن يصدق أنها مدينة شرقية وكل بنيان يتجدد فيها فجارٍ وضعه على النمط الأفرنجي ولا تجد حارة تحظى بذلك النمط دون أخرى.

أما فنادقها ومنازل أغنيائها فهي غاية في الإتقان والتحسين كالقصور المشيدة في شارع باب شرقي والمنشية الكبرى ولم يبق الآن من مزايا الإسكندرية التي كانت مشتهرة بها في القدم سوى الشهرة التجارية وبعد أن كانت مياها قبلا تتقاطر إليها المراكب من كل ناحية تعطلت مدة طويلة ثم عادت الآن إلى ما كانت عليه من النجاح القديم ولا غرو إن عدها الإنسان من أحسن موانى أفريقيا والمشرق فإن من يشاهد حركتها التجارية يعلم ما لأهالي

هذه المدينة من مزيد الشغف وعظيم التولع بالتجارة فإن في كل عشرة منهم تسعة يتعاطون الأعمال وبالجملة فإن سكان الإسكندرية منهم المتجر بالأقطان والغلال وما ماثل ذلك ومنهم الباعة الأصاغر المنحصرة تجارتهم في بيع الأشياء المصنوعة في أوروبا خصوصا في فرنسا وإنكلترا والنمسا.

وقد شغلهم ذلك عن استخراج الآثار القديمة المخفية في باطنها ومن المنافع العمومية أن أوجد في مياناها رصيف طويل يقيها من تلاطم الأمواج فصارت بذلك آمنة حصينة وقد حاول البعض من حكام الترك في الأزمان السالفة أن يصنع لها رصيفا من الأعمدة والأحجار الضخمة التي وجدت في الآثار القديمة فما تسنى له ذلك.

أما آثارها فقد تنافست في شرائها الإفرنج كالمسلات التي ما زالت تزدان بها الساحات العمومية بمدينتي لوندره ونيويورك أما المعارف والفنون التي كانت تفتخر بها على جميع مدن الدنيا القديمة فلم يبق لها أثر البتة في عصرنا هذا.

ومن الأسف أنه في الزمن الذي حصلت فيه الإسكندرية على زيادة التقدم في عهد جنتمكان محمد علي باشا ونجله دولتلو سعيد باشا لم تتوجه العناية إلى إظهار تلك الآثار الدالة على تاريخها وحفظها، تصل إليه يد الإمكان نعم قد أرسلت جملة منها إلى متحف بولاق بمصر ولكن أغلبها يتعلق بالتاريخ الروماني. فكان الأجدر أن تحفظ بالإسكندرية لأن وجودها بجانب غيرها من آثار الفراعنة وملوك مصر الأول مما يحط بقدرها وينزل من شأنها ومن العبث الآن البحث على آثار الإسكندرية لداعي زيادة العمران وإتساع البنيان.

وبالاختصار نقول إن الإسكندرية قد استرجعت شهرتها القديمة من حيث التجارة فقط فإن قيل لماذا لم تسترجع أيضا شهرتها العلمية نقول إنه وإن كان فيها من فحول الرجال وأكابر العلماء من لو سمح الدهر برجوع الإسكندرية إلى حالتها الأصلية لأمكنهم أن يقوموا مقام إقليدس ودمتريوس وفالير وزينودوت وكاليماك واراتوستين وسيرين وفيلون وابيان وأوريجين وغيرهم ولكن من يجمع لنا من هم كأولئك القوم ذوي العقول المستنيرة ليزيلوا برقع ظلمات الجهل بطلعة شمس حقائق المعارف فتظهر صورة العلم من اجتهادهم في أحسن تقويم بعد اندراجها في طي العدم الرميم وتصير مدينتنا قاموس المعارف الفلسفية وبحر مسجور العلوم اللدنية.

obeikandl.com

عصر اليونانيين

في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد أي سنة ٤٢٢ من تأسيس رومه والسنة الأولى من الألولمبياد الثاني عشر بعد المائة تبواء عرش مصر إسكندر الأكبر الذي سرح الجيوش الكثيرة إلى بلاد العجم وأسس مدينة سماها باسمه وتوضيح ذلك أنه لما ظفر بداريوس الثالث (داري) في واقعة أسوس وأوقع به زحف إلى فينقيا واستولى على صور وغزه ثم احتل بلاد مصر فنظم أمورها الداخلية والخارجية ورتب القواعد وأقام الناموس وصرف الجهد إلى إبقاء العادات والأخلاق على ما هي عليه فنال بذلك محبة الشعب المصري وثقته فيه ثم توجه إلى واحة آمون ليستشير ألهتها فلما عرفته الكهنة وقع الإقرار ببينهم على أنه ابن المعبود أمون را الذي يوجد هيكله بمدينة طيبه ولما عاد من تلك الجهات رأى قرية مشيدة على شواطي البحر الأبيض المتوسط تسمى راقوطيس قبال جزيرة فاروس على برزخ ضيق من الأرض تحده مياه البحر من الشمال وبحيرة مربوطيس من الجنوب فبعدان تأملها التأمل الطويل وأمعن فيها كل الإمعان راق في عينيه موقعها وحسن لديه وضعها وكان جميع سكانها من الصيادين والرعاة ولهم هيكل يعبدون فيه إيزيس وسيرابيس. وقد كان الإعجام وقبلهم الفراعنة حصنوا هذه القرية ليكتفوا غائلة اللصوص الذين هتكوا حرمتها وكدروا صفو راحة أهلها بإغاراتهم المتوالية وجناياتهم المتواترة.

وقال استرابون «أنه لما سر ملوك مصر مما صار في حوزتهم وفي قبضة يدهم من البلاد حسوا باحتياجهم إلى المخالطة مع غيرهم كما هو شأن المعاملة

فوضعوا في هذا المكان حرسا يمنع دنو من ليس بينهم وبينه معاملة ويصد هجمات الأعداء خصوصا اليونان الذين لضيق أراضيهم عليهم وتعذر طرق المعاش عندهم تعاقدوا على سلب مالا يجدونه مباشرة لديهم وكانوا يفعلون ذلك كلما لاحت لهم الفرصة وسنحت لهم النهزة فصار القتل لهم ديدنا والنهب سجية ومغنما».

ولما أدرك الإسكندر ما اختص به وضع راقوطيس من المنافع والمزايا استنفد وسعه وبذل مجهوده في تأسيس مدينة عظيمة تكون عاصمة فتوحاته وفوّض إلى دينوقراطس مهندسة الخصوصي تنفيذ مأربه واعتمده لإنجاز قصده فابتدأ الأعمال بكل همة ونشاط وقال ديودور دوكنتكورس إن موضع أسوار هذه المدينة خطت بالجير والدقيق فكانت عبارة عن الفضاء الكائن بين البحر وبحيرة مريوط وكان طول كل من ضلعيها العظيمين اللذين هما عبارة عن ساحلي البحر والبحيرة ثلاثين استاده (غلوه) أعنى ٣٧٥٠ خطوة باعتبار أن الاستادة ١٢٥ خطوة وطول كل من الضلعين الأخرين أي عرض البرزخ التي أسست المدينة عليه ثمانية استادات أي ١٠٠٠ خطوة وقد بين الإسكندر بنفسه مواقع المحلات العمومية والهياكل الواجب بناؤها لمعبودات اليونانيين والمصريين وكان أتباعه هذا القصد وسلوكه هذا المنهاج دليلا على اعتدال مشربه وصواب تدبيره وسداد أموره وترك الإسكندر بها فرقة من الحرس المقدوني وأذن لكثير من اليونانيين والأسيويين أن يتوطنوا بها.

وكان غرض الإسكندر من تأسيس هذه المدينة تغيير أحوال العالم مبالغة في الحضارة والتمدن وربط الأمم التي كانت خاضعة لشوكته بروابط تجارية

وثيقة هذا ما دعاه إلى انتخاب هذه البقعة من سواحل برّ مصر منفذاً لأفكاره السامية واقتراحاته العالية.

وما لبث أن تم هذا المشروع حتى أقبل اليونان على هذه المدينة جماعات وشتى وتزاحموا على مواردها فصارت بلدة يونانية صرفا لا منازع لهم فيها ولا مشارك وصارت بعد تأسيسها بزمن يسير أبهج مدن البلاد المصرية لما اشتملت عليه من تمام التمدن واختصت به من الآثار التي تدهش برونقها الأبصار وتحير بدقتها الأفكار وورد إليها الجم الغفير من أرباب العقول المتنورة والمدارك السامية كالفلاسفة والعلماء وقد حكم البطالسة على بلاد مصر مدة ثلاثة قرون لم تزل فيها مدينة الإسكندرية مركز حكومتهم ومقر أهل الحل والعقد منهم لا تزداد على طول العهد الأجدة.

obeikandl.com

استطراد لا بأس به

إسكندر الثالث المقدوني

هو المشهور باسم إسكندر الأكبر ولد في خريف سنة ٣٥٦ قبل الميلاد ومات بمدينة بابل في شهر يونيه سنة ٣٢٣ وكان من أتم الملوك حزما وعزما وفراسة وفهما ومن فحول الرجال الذين أدهشوا العالم بأعمالهم العظيمة وهو ابن فيليش ملك مقدونيا أحد دهاة السياسة الذي بثاقب رأيه وظاهر حزمه وشديد نكايته رتب الجيوش وجمع شتات الوحدة اليونانية ولمّ متفرق شعثها وأخضع لأحكامه متوحشي شمال بحر ايجه وضم قوى اليونان في قبضة واحدة ليصادم بها مملكة الأعجام وقد اقتدى الإسكندر بأبيه في أخلاقه الحميدة وآرائه السديدة فرتب العساكر ودبر أحوالها وأدرك المشروعات المفيدة ونفذها بفهم تقصر عنها قرائح مشاهير الفحول وكان الإسكندر منذ نعومة أظفاره مخائل الذكاء عليه لائحة وأمارات الظفر وشواهد الشرف في عينيه بينة واضحة وهي صفات تحلى بها والداه من قبله وقد حدث ذات يوم أنه سأل سفير العجم عن أحوال مملكة سيده وعن عادات أهل بلاده وأخلاقهم ونظاماتهم فأدهشه بما كان يودعه في هذه الأسئلة من العذوبة الممزوجة بالبلاغة والاختصار وكان مشغوفا بمطالعة مؤلفات «هوميرس» الشاعر اليوناني المشهور ومولعا بالاقتداء بالبطل المشهور أخلاوس والتأسي به في أعماله وكان يفتخر بأنه غصن من دوحته وسهم من كنانته وكان مؤدبه في الصغر بطروقلس ثم هفستون وصار ارسطاطاليس أستاذًا له من سنة ٣٤٥ فأحسن تربيته ولقنه

الخلال الحميدة كاحتقار الزهو والكبرياء وبث فيه حب البحث في حقائق الأمور وسبر غورها ثم التفت إلى العلوم فأخذ منها بقسط وضرب فيها بسهم وتأدب وبرع واعتنى بالفلسفة ولما كافح التراسيين أظفره الله بهم وأظهره عليهم وكان بنفسه قائدًا لفرقة الفرسان (٣٣٨) وفي السنة التالية قهر الأمير بلورياس ملك اليريا وأورد جيشه موارد لا صدر لها وتصادف أن حصل في تلك الأثناء أمر كاد أن يعرض مستقبل الإسكندر إلى أكبر الأخطار وذلك أن أباه عدل عن أولمبياس زوجته وطلقها ليتزوج بكليوباتره بنت أخت أتال المقدوني المشهور برسوخ نسبه وكرم أصله فلما رأى الإسكندر ذلك من أبيه انحاز إلى والدته وتنازع لأجلها معه على خوان المدعوين للعرس فأراد أبوه أن يفتك به فتمكن الإسكندر من الفرار والاختفاء مع أمه ببلاد أيبيزيا ثم صالحه مع أبيه كل من ديمارات وكورنت وما زالت الفتن راسية القواعد ثابتة الوطائد مشيدة الأركان إلى أن قتل الملك وعفت آثار حياته وقام بأعباء المملكة وتدبيرها من بعده ابنه إسكندر وكان عمره عندما تربع في دست المملكة المقدونية عشرين سنة وكان أول حكمه محفوفا بالأخطار لأن كليوباترة زوجة أبيه كانت وضعت ولدًا وأتال كان على رأس جيش جرار قصد بتحشيده محاربة الأعجام.

ولما انتشر خبر موت الملك فيلبش اشتدت عرى الهرج وانحلت عقال الفتن فاستجلب ديموستين قلوب أهالي أتينه وهيلاده وتساليا وأجرى المخابرات مع أتال والعجم وطردت أهالي امبراسيا العساكر المحافظين وقاموا على قدم وساق وحاصرت أهالي طيبه عساكر قدما وأخذ المتوحشون من

التراسيين والبيوثيين والجيطيين والاليريين شمالا وغربا في إضرام نيران الفتن ونفخ رماد المحن.

وكان رفقاء الملك من الشبان ينصحونه أن يوقع الفشل في صفوف أعدائه فأصاخ إليهم ووعى حديثهم وابتدأ يعمل بنصائحهم فأهمل جهة الشمال التي كانت قوى الأعداء فيها مؤلفة من جيوش ليس لها نصيب من النظام والترتيب حتى تخشى أضرارهم وبث الرصد والعيون في معسكر أتال مصرحًا لهم بقتله إذا تسنت لهم الفرصة ثم استلم بنفسه قيادة الجيوش ووضع الحرس الكافي على مضيق تامبه وجمع رؤساء الأشراف من التساليين وألزمهم الدخول في طاعته والإذعان إليه وأحذى حذوهم جبلي الجنوب (ايانيين وملیانيين ودولوبيين) ففتحوا له دربند ترموبيل ولم يصادف معارضة من جهة الامفكتيونيين وكان بقدما وطيبه محافظون من المقدونيين فلم يتمكنوا من الجنوح إلى الثورة بل انصاعوا إلى شوكته خاضعين وعقد الإسكندر عقب ذلك مجلسا عاما بقورنثه ولقب نفسه فيه بالاستراتيج العمومي للهيلنيين (أي القائد العمومي لجيوشهم) فوردت عليه الوفود من الفلاسفة ورجال السياسة وأرباب الفنون والصنائع لتهنئته خلا ديوجينس الكلبي فإنه بقي في برميله منتظرا زيارة الإسكندر له ولما قفل الإسكندر راجعًا إلى مقدونيا انتهى إليه خبر موت أتال وإن أمه أولمبياس قد سعت في قتل ضرتها كيلوباترا وابنها الذي رزقت به من فيلبش فلما اطمأن الإسكندر بذلك وسكن قلقه قصد الأقوام المتوحشين الساكنين في الجهات الشمالية وقطع وادي الأينر (مارتزه) وقهر الترانسيين وهاجم التريباليين وحاصرهم وسد مساربهم وأخذ عليهم مهاربهم ثم اجتاز نهر الدانوب على قنطرة وهزم الجيطيين وقطع نظامهم وهدم مدينتهم وبعد أن

قرب القربان إلى الآلهة زوش وهيراكليس ودانوب منح المتوحشين ما أتوا يلتمسونه منه من الصلح والهدنة لأنه ما كان أراد بقهرهم سوى إلقاء الرعب في قلوبهم وما كان بنيته قط الاستيلاء عليهم ثم شخص من تلك الجهات إلى إقليم أليريا بعد أن مر على بلاد الإغريانيين محالفيه (صوفيا في أيامنا) وكان وصوله إلى الأليريين في يوم استيلاء هؤلاء على مدينة بيليون مفتاح مقدونيا من الجهة الغربية وكانت المخاطر محدقة به في هذه الحروب (وذلك أنه أشيع كذبًا أنه قد مات) فنشر أهالي هيلاده لواء العصيان وخلعوا ربقة الطاعة من عنوقهم وصار كل من الإتينبين والإتيوليين والطيبيين متهيئين للحرب والنزال وكان الإسكندر شديدا على أهل الثورة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم فقصد مدينة طيبة ووصل إليها في أربعة عشر يومًا واستولى على حصونها الشامخة الذري ثم دمرها وجعل عاليها سافلها وباع من أهلها ثلاثين ألف نفس فلما نمى ذلك الخبر إلى علم الاتينيين لزموا جانب السكون والطاعة وخافوا أن يلم بهم ما ألم بإخوانهم الطيبين.

وبهذه المثابة توصل الإسكندر إلى إخماد نيران الفتن فثبتت قواعد دولته وتأيدت عراها في مدة سنة واحدة أما هو فصار الملك الوحيد على مملكة فيلبش بحذافيرها وما يتعلق بها من البلدان الأخرى والمستعمرات ولما فاز في مشروعه هذا أخذ يتأهب للغارة على بلاد العجم ومن يتأمل في هذا الأمر يندهش من الفرق الكائن بين المملكتين فإن بلاد مقدونيا كانت عبارة عن جزء من ثلاثين جزءاً من مملكة العجم على أنه ما اعترض في سبيل نجاح هذا المشروع عائق إلا واجتهد الإسكندر في كبحه وإزالته من ذلك أنه اقترض ثمانمائة تلان من الدراهم لتحشيد الجنود وتعبية مهمات الحرب وأوزارها فلم

يبق معه من ذلك عند سفره سوى ستون تلانا (أي ٣٠٠٠٠٠ فرنك) وكان له نفوذ وكلمة في أقوام الهيموس القاطنين بجوار الدانوب وفي الأليريين أما التساليون محالفوه فكانوا في حوزته وقبضة يده وكذلك أهل الأيبير أما بلاد هيلاده التي ساومت بلاد كورنث الحلف والمعاضدة فلم تمد له يد المعونة والموازرة إلا بشيء يسير وكانت دوننمته مركبة من ٣٥٠ فرقاطة و٣٠٠٠٠ محارب من المشاة و٤٠٠٠ من الفرسان فترك الإسكندر إلى انتيباتر خليفته على مقدونيا ثلث هذا العدد فكمل بذلك النقص الذي كان بجيوش المحالفين ولم يستصحب معه إلا ٣٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و٥٠٠٠ من الفرسان ولم تكن أسباب نصرة هذا الجيش كثرة العدد فإن قلته ظاهرة بل لحسن نظامه وتمام ترتيبه وإما نأتي على شرح نظام هذا الجيش بالتفصيل بما في ذلك من الأهمية فنقول. إن نظام الجيوش عند قدماء اليونان كان يقضي أن المشاة من العساكر يلزم أن يتسلحوا بأسلحة كثيرة ولذا كان عليهم المعول في مواطن الحرب حتى أن أفقراطس لما أنشأ الجيوش الخفيفة الأسلحة كان سببا لوقوع الفشل في عساكر اسبارطه وعلى العموم فكان يوجد في عساكر المقدونيين من هذا النوع ومن النوع الأول الذي كان يسمى بالعساكر الثقيلي الأسلحة وكان عساكر الأسلحة الخفيفة يحملون صنفًا من المزاريق يتغير طولها من ١٤ إلى ١٦ قدمًا وسيفًا قصيرًا ودرعًا وترسًا مستديرًا وكانوا صفوفًا سمك الصف منها ستة عشر رجلا وكان للعساكر ذوي الأسلحة الثقيلة درع وترس خفيف وسيف مدبب طويل مثل ما لعساكر الأسلحة الخفيفة وكانوا أحسن عساكر جميع الجيش وأكثرهم نظاما وأشدهم بأسا وكان الطابور الأول منهم يسمى أجيما (أي الحرس الملوكي) ويوجد في الخيالة مثل ذلك وكان رؤساء هذه الفرق من

النبلاء والأشراف وأسلحتهم قاصرة على الخودة والدرع والسيف والمزراق ثم يي ذلك الفرق الهلينية وقد أضاف الإسكندر على هذه العناصر الأساسية عنصرا آخر لم يكن معروفا قبله وهو أنه أتى بسكان شمال وشرق مقدونيا من الجليين والصيادين وقاطعي السبيل والتراسيين والأغريانيين وهم متسلحون بالسهام والقسي ووضعهم في مقدمة صفوف جيشه وكان رؤساء الفرق المتحالفة من المقدونيين وكان عدد المكلفين بملاحظة لوازمات العساكر ومهماتهم عشر العساكر المشاة والجدول الآتي يتبين منه نوع عساكر كل فرقة من جيش إسكندر.

الخيالة – أولا الخيالة الثقيلة:

	عدد
مقدونيون	١٨٠٠
تساليون	١٢٠٠
يونان متحالفون	٤٠٠
	٣٤٠٠

ثانيا الخيالة الخفيفة

مقدونيون وبيونيون يحاربون بالمزاريق	١٢٠٠
أودريز	٦٠٠
	١٨٠٠

يكون مجموع الخيالة ٥٢٠٠

obeikandl.com

المشاة – أولا المشاة الثقيلة

مقدونيون	٩٠٠٠
يونان متحالفون	٤٠٠٠
عساكر مجمكه	٦٠٠٠
	١٩٠٠٠

ثانيا – المشاة الخفيفة

مقدونيون	٣٠٠٠
يونان متحالفون	١٠٠٠
عساكر مجمكه	١٠٠٠
أكونتيست	٤٠٠٠
	٩٠٠٠

ثالثا – جيوش خفيفة

مقدونيون بالقسي	٥٠٠
كريديون	٥٠٠
أغريانيون	١٠٠٠
	٢٠٠٠

obeikandl.com

يكون مجموع المشاة	٣٠٠٠٠
يكون مجموع الخيالة	٥٢٠٠
	٣٥٢٠٠

وكان تنظيم العساكر وقت الحرب كالآتي. العساكر الثقيلة في القلب والمشاة الخفيفة والخيالة الخفيفة من المقدونيين والبيونيين وحاملي القسي والأغريانيين في الجناح الأيمن والتراسيون والخيالة الهلينيون والنساليون والأودريز في الجناح الأيسر ثم يتبع جميع ذلك فرقة من حاملي القسي ومما قرن حروب إسكندر بالظفر وكللها بالنجاح ثلاثة أمور الأول استعمال الجيوش الخفيفة الثاني عدد الخيالة بالنسبة لمجموع الجيش فكان عدد الخيالة في الجيوش اليونانية قليلا جدا وقد كتر أبامينونداس عددها فجعلها بنسبة عشر الجيش العامل ولكن الإسكندر رفع هذه النسبة إلى السدس لأنه كان يعلم علم اليقين أن قوة الجيش وشوكته معقودة بناصية الفرسان الثالث إنشاء صف ضباط منتخبين من الحرس الملوكي وكان لدى الإسكندر سوى ذلك كثير من المهندسين والآلات الحربية التي كانت تفوق آلات العجم اتفاقا وسرعة استعمال ولما نظم إسكندر الجيش على هذا المنوال وأحسن إدارته وتدبيره سافر لمحاربة الأعجام في ربيع سنة ٣٣٤ وكانت مملكة الأعجام في تلك الأيام غير وثيقة العري متداعية إلى السقوط من أوج الرفعة لما منيت به من استبداد حكامها واستقلال عامليها وجنوح الناس إلى الثورة والفوضى وكان الملك وهوداري الثالث بن كودومان مستضعف الرأي قليل الخبرة واهي العزيمة

فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه. ولها رأي أهل بلاد آسيا الصغرى ذلك الانحلال لم يعبئوا بتابعيتهم له بل أخذوا في أسباب الاستقلال وكذلك مصر انتهزت فرصة هذا الاختلال لرفع ناف العبودية عن عاتقها هذا ولم تكن جيوش العجم مثل جيوش إسكندر في النظام والترتيب.

ولما سافر إسكندر من بلاد مقدونيا استعمل عليها انتيباتروترك معه ١٣٠٠٠ من المشاة و١٦٠٠ من الفرسان ووصل إلى بوغاز هلسبون فاجتازت جيوشه هذا البوغاز أما هو فذهب إلى تروادة (أزمير القديمة) وقدم القربان إلى بوزيدون وزوس وأخلاوس وبريام وأقام الأعياد هناك أياما ثم رجع إلى جيشه فاحتل به مدينة لمبساك وقصد الجهة الشمالية والشرقية فصادف جيوش الأعجام على سواحل نهر الغرانك وكانت هذه الجيوش تنتظره لمحاربته ولم يسمع الحكام أقوال ممنون الرودسي ونصائحه فإنه كان قد أشار بترك الإسكندر وعساكره يتوغلون في البلاد حتى إذا أجهدهم العطش وأنهكهم التعب هلكوا أو سهل عليهم القيام بقمعهم أتم قيام ولما لم ترضَ الحكام والعمال بذلك قاموا وراء التل الكائن بقرب النهر المذكور وبلغت بهم الحماقة وسخافة العقل إلى عدم قبول مساعدة اليونان المجمكين أما ممنون فإنه صادم الجناح الأيمن من جيش الإسكندر مصادمة تدل على مكانته من الشجاعة والبسالة ثم أن إسكندر اجتاز النهر وذهب إلى مقام الحكام وأوقع بهم الفتك وحصدهم بمنجل الموت ولما مات من الأعجام ورؤسائهم نحو الألف ورأت ذلك جيوشهم انحلت قواهم واضطرب حبلهم فركنوا إلى الفرار ولم يبق في ميدان القتال سوى العساكر المجمكة الذين أخذوا يقتلون أنفسهم بأنفسهم

فلما استقر الأمر على ذلك وصفا الجو لإسكندر وجيوشه أخذوا يغنمون ما تركه الأعجام على ساحة القتل وكان ما خسره الإسكندر شيئا لا يذكر.

ثم أمر إسكندر بدفن موتاه وموتى أعدائه ولما رأى أن هذا الفوز قد مهد السبيل لمشروعه اتجه نحو الجنوب وعدل عن التجول في الداخل والمسير إلى الفرات لأنه رأى أن ذلك أدعى لتوطيد قاعدة أعماله وتأييد دعائم مشروعاته ثم عرض على المدن اليونانية التي على الساحل الدخول في طاعته فلبوا دعوته وأجابوا ملتمسه وبادروا إلى ذلك سراعًا لما وقر في نفوسهم من السخط والحنق على الأعجام ثم استولى على فريجيا وليديا ولم يصادف من أهلها أدنى معارضة أو مقاومة وكانت دوننمته البحرية المركبة من ١٦٠ سفينه تساعد العساكر البرية عند الحاجة فحاربت أسطول الأعجام واستولى عقب ذلك على إقليم كاريا فلما رأى ممنون هذا الأمر تحصن ببلدة هاليكرناس فصرف حينئذ مهندسو المقدونيين عنايتهم إلى عمل فتحه في أسوار هذه المدينة وقد تيسر لهم ذلك فدخل الإسكندر يقوده النصر ويحدوه الظفر ثم مضي الشتاء في كاريا وترك قيادة جيوشه إلى برمنيون بليديا وكانت نتيجة هذه الوقائع الأخيرة أن يونان آسيا عرضا على ملك مقدونيا رغبتهم في الانتماء إليه ومات ممنون وهو محصور في مدينة ميتلين فحزن ملك العجم عليه حزنا شديدا على أنه كان السبب في موته وتوضيح ذلك أن كاريديم الأتيني أشار على ملك العجم بأتباع نصائح ممنون فغضب داري من ذلك كبرا وتشامخا وأمر بإعدامه خنقا.

ولما مضى إسكندر الشتاء في كاريا استولى على ليسيا وبمفيليا ثم نحا نحو الشمال فالتقى ببرمنيون في مدينة غرديون من إقليم فريجيا وكانت تلك المدينة

عاصمة هذا الإقليم ثم نزل بإقليم سيلسيا ودخل بمدينة طرس وكاد أن يموت فيها عقب استحمامه بمياه منهر السدنوس الشديدة البرودة غير أنه شفي بما بذله حكيمه المسمى فيلبش من الاعتناء والهمة ثم قصد بلاد سوريا عند خليج أسوس وفي تلك الأصقاع حصلت الواقعة الثانية لأن داري لما سمع بقرب مجيئه أتى إليه بجيش جرار يبلغ عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل من اليونان المجمكين وعدد لا يحصى من المشاة والفرسان ومن غباوته وسوء تدبيره وعدم تبصره دخل في الجبل ظاناً أنه يحميه من عدوه أما الموقع الذي عسكر فيه إسكندر فكان داعية إلى انتصاره أتم انتصار وذلك أنه اتجه بعسكره نحو الشمال وذهب لمقابلة الأعجام ومقاتلتهم وكان الجناح الأيسر من جيشهم من جهة النهر والجناح الأيمن من جهة الجبل وكان الهجوم للجناح الأيمن المشتمل على العساكر المجمكه والخيالة والانتشار على الأعداء للجناح الأيسر والقلب الذي به داري للدفاع أما الإسكندر فقد ترأس على الجناح الأيمن من جيشه وسلم زمام الأيسر للقائد بمرمنيون وفاجأ عدوه بالمهاجمة عليه فلم تكن إلا ساعة زمن وقد ظفر المقدنيون بالأعجام وجرعوهم كأس الحِمام وفرقوا شمل جمعهم ونشروا عقد نظمهم ورموهم بالثبور. والويل ووطئوهم تحت سنابك الخيل فلما رأى ذلك داري ركن إلى الفرار وأبى الانتظار وتتبعه في ذلك الأمر المذموم والجبن المشؤوم عساكر القلب والجناح الأيمن ولما علم فرسان الأعجام بهذا الخبر ولوا مدبرين وانقلبوا على أعقابهم خاسرين وقد وضع المقدونيون فيهم السيف عند تقهقرهم وبالغوا في استئصال شأفتهم حتى بلغ عدد المقتولين منهم ١٠٠٠٠٠ نفس (نوفمبر ٣٣٣ ق) ولم يساعد داري على النجاة سوى سرعة عدو جواده.

وسبى الإسكندر أمه سيزغميس وأخته استاتنيره أجمل بنات آسيا وأسر أولاده وأظهر لهم من التعطف والرأفة ما دل على سمو فضله وطيب أعراقه وكرم محتده. وحاول داري بعد ذلك أن ينال الصلح فلم ينجح إذ أجابه إسكندر بقوله أن مسئولية الحرب حقها أن تلقى على عاتق الأعجام بما أنهم هم الذين ابتدأوا وأنه لم يحاربهم إلا تشفيا مما فعله ملك العجم أكزرسيس من قبل في بلاد اليونان ومقدونيا.

ثم أعلن إسكندر أمارته على آسيا وأنه قد تملك عليها وعرض على داري أن يقر له بالطاعة أو ينتظره للقتال فاجتهد داري أن يميل الإسكندر إلى تقاسم المملكة معه لحد نهر الفرات وأن يزوجه ببنته فأبى الإسكندر ذلك وكان بدمشق سفراء من عند الأثينيين والأسبرطيين والطيبيين فوجه سامي التفاته إلى قطع العلاقات التي بين ملك اليونان وملك العجم وحرمان هذا الأخير من العساكر المجكمة التي هي في الواقع عبارة عن القوة الوحيدة التي يستطيع بها جيشه القيام بصد هجمات عساكر مقدونيا ولهذا الغرض نصبت حروب سنة ٣٣٢ وكانت قوى الأعجام البحرية آتية بتمامها من صور وعراد وببلوس وسيدون (صيدا) ومن مدن جزيرة قبرص ولو كان أهل هذه المدن يدًا واحدة في المدافعة عن بلادهم لما أمكن للإسكندر أن يسير خطوة واحدة في سبيل الانتصار إلا أن ما كان متحكما بينهم من الخلاف وعدم الائتلاف كان سببا لوجود الشقاق حتى عولوا على الفراق وقاموا على قدم وساق وصار الوصول إليهم من أسهل الأمور أما عراد وببلوس فقد فتحت لجيوش الإسكندر أبوابها ولاقاهم أهلها بالترحاب وهشوا وبشوا في وجوههم أما مدينة صور فأراد أهلها البقاء على ما كانوا عليه من شبه الاستقلال وعدم تمكين الإسكندر من

التطرق إلى مدينتهم فلما بلغه ذلك بادر بوضع الحصار على هذه المدينة فأنسل أهلها إلى صور الجديدة وهي عبارة عن جزيرة صغيرة في وسط البحر وظنوا أنهم في ملجأ من هجمات العدو ولكن لم يصب ظنهم الغرض المطلوب إذ أن إسكندر صنع جسرا يتمكن من الوصول إليهم فما كان منهم إلا أن حرقوه فرأى أن السفن هي المؤدية لتمام مرغوبه فقدم له ملوك قبرص وأهالي فنيقيا ما ينيف على ٢٥٠ سفينة رست في مينتي المدينة ولما اشتبك القتال واستعرت نيران الحرب بين الفريقين توصل الإسكندر إلى عمل فتحة في سور المدينة لم يتمكن جيوشه من الدخول فيها في بادئ الأمر لكنه استولى عليها بعد ثلاثة أيام وقتل من أهلها ٨٠٠٠ نفس وباع ٣٠٠٠٠ وكان مكوث هذه الحرب ستة أشهر وكان لم يبق من سفن العجم إلا عدد يسير فأتى انتيباثر المتقدم الذكر ودمر هذه السفن واستولى على جزائر آسيا الصغرى وكان الإسكندر لم يتخلص من هذه العوائق إلا ليقع في أصعب منها وذلك أن باطيس المخصي دافع عن مدينة غزه دفاع من يعلم ما للوطن من الحقوق المقدسة وأبي التسليم والرضا بالإهانة وقد جرح إسكندر في هذه الموقعة ولم يتيسر له الانتصار ثلاث مرات متوالية وفي المرة الرابعة كان الظفر قرينه والسعد رفيقه فدخل المدينة وطاف في شوارعها ووضع السيف في أعدائه حتى أتى على آخرهم وعفي آثارهم وهنا أمر يدل على ما داخل الإسكندر من الغرور والمباهاة ولا يصح أن نسكت عنه وهو أنه لما قبض على عدوه وعثر عليه أراد أن يربطه في حصانه ويدور به حول المدينة تشبها بما فعله إخلاوس عند محاصرته مدينة طرواده.

ولما كان شهر ديسمبر سنة ٣٣٢ دخل الإسكندر بر مصر الذي كان إذ ذاك عظيم الأهمية لكونه كان الواسطة الوحيدة بين الشرق الأقصى وبلاد البحر

المتوسط والمركز الوحيد للعلوم والتمدن والثروة وقد تلقى أهلها الإسكندر بكل ترحاب لما أملوه من النجاة من ظلم الإعجام واعتسافهم واحلوه في صدورهم ووضعوه فوق رءوسهم فسر مما أبدوه نحوه من هذه العواطف وتوجه إلى مدينة منفيس حيث قرب القرابين العديدة إلى الإلهة المصريين خصوصا إلى العجل أبيس واحترم الكهنة ورأف بمن مسه ظلم الأعجام فاكتسب بذلك محبتهم واستولى على قلوبهم ومن عجيب ما يروى أنه كان بواحة أمون في وسط صحراء ليبيا غربي مصر هاتف مشهور عند الهيلنيين وكان الإله الذي يعبد في الهيكل الموجود بتلك الجهات هو زوس وهو غير أمون والذي كان أيضا بتلك النواحي وكان الطريق الذي سلكه الإسكندر في وسط الصحراء صعب العبور لشح الماء وكثرة هبوب الرمال التي ربما وارت تحتها ٥٠٠٠٠ نفس في لحظة واحدة كما حصل ذلك لقمبيز ملك العجم من قبل ومما روي من الترهات والأباطيل في هذا الشأن أن المشتري دفعا لهذه المخاطر أمر السماء أن تمطر مدرارا فهدأت الرياح وسكنت الرمال في محلها وهب نسيم لطيف ولما ضل عساكر إسكندر وتفرقوا عن بعضهم أرسل إليهم غربانا صارت ترشدهم إلى السبيل القويم وتجمع متفرق نشرهم وكانوا إذا وقفوا من تعب السير وقفت تلك الطيور لانتظارهم وكانت في الليل تنعق لتهتدي العساكر بصوتها فلا تزوغ عن الطريق ولما عاد الإسكندر من زيارته للهاتف المتقدم الذكر لم يتكلم بما رآه بل ترك عساكره يقصون ذلك وقد ألبسوه من المبالغة والإطناب ثوبًا جديدًا وما كانوا يقصونه هو أن الإله قد شرف الإسكندر وجعله ابنًا له وقد أوصل له ذلك الخبر على لسان الهاتف وكان غرض الإسكندر من هذه الزيارة دينيا محضا أراد به الاطلاع على باطن الديانة

المصرية ثم أنه تفرغ إلى حل المشكلات التي وقعت له أثناء طريقه ونظم البلاد المصرية ووزع القوة الحاكمة على جملة أشخاص خوفا من أن وضع أزمة الإدارة في يد واحدة ربما مال بها إلى جانب المطامع ثم أنه صمم على بناء مدينة يسميها باسمه ويأذن لليونان في سكناها وعقب ذلك بأيام قليلة رأى في منامه شيخا جليلا مهابا دنا منه وقال له شعرا مؤداه «أن جزيرة فاروس هي المنفردة بالشهرة من دون جميع جزائر البحار التي تحد بعض الجهات المصرية» فقام في الحال وذهب ليرى موقع تلك الجزيرة التي كانت عبارة عن لسان من الأرض كثير الطول ضيق العرض ثم أمر بتخطيط هذه المدينة بالدقيق فخطت فكانت أشبه شيء بالبرنس المقدوني وكان الإسكندر يتأمله وقد شمله السرور وعمه الفرح وما كادت ثمر ساعة من الزمن حتى رأى الحاضرون طيورًا مقبلة كالغمام انقضت على الدقيق فأكلته فتعجب الإسكندر من هذا الأمر وأظهر مزيد اندهاشه منه فقال له من حوله إن المدينة التي أزمعت على بنائها ستكون كثيرة الخيرات غزيرة البركات سببا في معيشة عدد عظيم من الأمم المختلفة فلما سمع ذلك الإسكندر أمر المهندسين بالشروع في العمل وفي ربيع سنة ٣٣١ شرع إسكندر في المسير وبعد أن أقام الأعياد في مدينة ممفيس وفي صور اجتاز نهر الفرات بقرب مدينة طبزاك وكان جيشه إذ ذاك مؤلفا من ٤٠٠٠٠ من المشاة و٧٠٠٠ من الفرسان ثم عرج نحو الجبل فعبر نهر الدجلة مارا بالجهة الشمالية من جيش الأعجام الذي كان واقفا لانتظاره بقرب خرابات نينوي.

وكان هذا الجيش معسكرا ببابل ثم انتقل إلى سهل أربل وكان مركبًا من ٤٠٠٠ فارس و٢٠٠ عربة حربية وألوف من المشاة لا تقع تحت حصر وكان التصاف بين الجيشين مدينة غوغميله فرتب الإسكندر جيوشه بنظامه المألوف

أي جعل برمنيون قائدًا للجناح الأيسر واستلم هو زمام الجناح الأيمن وجعل خلف الجناحين فرقًا أخرى للمساعدة وقت الحاجة. أما العربات المتقدمة فلم تنفع بشيء حيث أن الجيوش المقدونية الخفيفة بادرت في الحال إلى إيقافها والاستيلاء عليها أما الجناح الأيمن من الجيش المقدوني ففاز بالظفر على الجناح الأيسر من العجم والجناح الأيمن من هذا الأخير الذي كان مركبًا من أعجام وهنود وبرطيين أوقع بالجناح الأيسر من جيش الإسكندر الذي تحت قيادة برمنيون وكان الإسكندر بعد نصرته على الجناح الأيسر من الإعجام كما تقدم عرج على القلب حيث يوجد الملك داري فلم ير هذا الملك الجليل سوى الفرار ملجأ له ومخلصا لحياته من مخالب الموت واقتفى أثره في هذه الخطة الذميمة جميع من معه من عساكر القلب ثم مال الإسكندر إلى الجناح الأيمن من الأعداء وبعد حروب طويلة اشتد ضرامها واستعرت نارها أظفره الله بهم ونصره عليهم وكان عدد القتلى من فرسان المقدونيين مساويا بالتقريب لمثلهم من الأعجام ولكنه عند انهزام هؤلاء الآخرين ورجوعهم القهقري وضع الإسكندر السيف فيهم نقتل منهم ألوفا عديدة (٣٣١) وكان داري قد التجاء إلى مدينة أكتان فدخلها القائد المقدوني مازه الذي امتاز بفتوته ونخوته في واقعة أربل بقرب بابل وتلته الجيوش المقدونية وما فعله الإسكندر في مصر مما ينطبق على إميال الأهالي فعله أيضًا في البلاد الأسيوية التي دخلت تحت حكمه وفي قبضة يده واهتم كذلك بحفظ الاعتقادات الأصلية وبقائها على حالها حرة ومما يثبت ذلك أنه أهدى الهدايا الجمة إلى هياكل بابل وقرب أشراف الأعجام وأكابرهم من حضرته فاكتسب بذلك محبتهم له وميلهم إليه ومنحهم الرتب السامية وقلدهم إدارات بلادهم علما منه بأنه لا يصح أن البلاد تحكم بمن هم

ليسوا من أهلها وقد أبقى مازه نظام السلطة الإدارية كما كان عليه من قبل في عهد حكام الأعجام غير أنه قسم تلك السلطة إلى حربية ومالية ونزعهما من السلطة السياسية وكان مع كل رئيس عجمي مراقب له من الهيلينين اليونان (٣٣١) ثم استمر الإسكندر سائرا في طريقه فاستولى على مدينة سوز وأخذ ما تحتويه هذه المدينة من الكنوز التي أحرزها المتقدمون من الملوك وأرسل مالا إلى انتيباتر ليوافيه بالإمدادات العسكرية وليستعين بها على مكافحة أهل أسبرطه ويرسل المدد إلى آسيا فلما وصله المدد توغل في بلاد العجم وكان أريوبرزان على رأس جيش جرار فلم يعبأ به بل أخضع لسطوته رقاب الجبليين وأوقع الفشل والقتل في معسكر أريوبرزان المتقدم الذكر وغنم ما في المدن الملوكية المسماة برسجاد التي بها قبر قيروش وبرسوبوليس وسراية العشمينيين ثم استراح فيها من تعب الحروب مدة أربعة أشهر في نهايتها حرق الإسكندر هذه السراية لغرض سياسي اختلفت آراء المؤلفين فيه وقد حاول داري أن يحشد جندا في اكبتان غير أن سرعة دنو الإسكندر منه ألجأه إلى الفرار إلى بقطريانه بعد أن هجرته بطانته وحقدت عليه خاصته ثم وقع بأيدي كل من تبرزان وبسوس أحد ولاة بقطريانه فأراد بسوس أن يسلمه إلى الإسكندر في مقابلة تملكه على الجزء الشرقي من بلاد العجم فلما انتهى هذا الخبر إلى مسامع الإسكندر جد في المسير لبلوغ هذين الخائنين فلحقهما بخمسماية من الفرسان وعثر في أنحاء طريقه على جثة داري ملقاة على الأرض مقتولا بيد بسوس وبموته دخلت المدن الأربعة وهي بابل وسوز وبرسوبوليس وأكبتان في أيدي المقدونيين وفي هذه الأثناء حدث ببلاد اليونان أمر ذو بال وهو أن أجيش ملك اسبارطه الذي احتل جزيرة كريد سنة ٣٣٣ جاهر بالعصيان على مقدونيا فقام

إليه انتيباتر بجيش كثيف وقتله بقرب مدينة ميغالوبوليس (٢٣٠) ولما مات داري أراد الإسكندر أن ينتقم له من قاتليه فتهياء جميع الحكام للدفاع وكانت هذه الحروب عبارة عن مواقع صغيرة وحصارات متعددة ومذابح متفرقة اضطرته إلى فتح كل إقليم على حدته وكان سلوكه هذا المسلك من دواعي نجاحه لأنه لو كان قسم جيوشه على تلك النقط لعمل الحرب دفعة واحدة لما تسنى له الاستيلاء عليها بل ربما انكسر وعادت عساكره بالخيبة والويل وصار الإسكندر يترك في كل إقليم بفتحه الحرس الكافي لمنع الاضطراب وبث الأمن والراحة ثم أتى بعساكر مجمكه من المقدونيين واليونانيين وضم إليهم عددا عظيما من الأعجام وأصدر أمره من مدينة برسوبوليس أن تعمل القرعة العسكرية على ٣٠٠٠٠ من شبان الإعجام ليتعلموا حمل السلاح حسب القواعد المتبعة في الجيوش المقدونية وأول حرب حاربت فيه هذه الجنود هو حرب إقليم بقطريانه وكانت أغلب جيوشه على نهر الهندوس من المتوحشين والمتبربرين وهذا مما يدلك على أن التغيير الذي أحدثه الإسكندر ببلاد آسيا كان شديد التأثير بمعنى أن الإسكندر كان لا يصح اعتباره أنه ملك مقدوني الأصل تجشم الأخطار لمحاربة الأعجام بل أمير من أمراء آسيا أخذ يحمد نيران الثورة التي أسعرها الحكام وأرباب الغايات من كبار القوم ووجوههم وكان في معيته كثير من الإعجام منحهم الرتب الجليلة والمقامات السامية على أنه ما توجهت أفكاره إلى هذه الأعمال إلا وتحركت عوامل الحقد وثار غبار الحسد في قلوب المقدونيين خصوصًا الأكابر منهم فإهم رأوا أنفسهم أنهم بعد أن كانوا مثل الملوك في العز والجاه والرفعة أصبحوا بدرجة من صاروا عبيدا لهم بحكم الغلبة ومما زادهم حنقا وغيظا أن حكام الأعجام كانوا إذا دعوا للمفاوضة مع

الملك في أي أمر كان ركعوا أمامه فلما رأى المقدونيون ذلك رأوا أنفسهم أجل من أن يفعلوا ذلك فلذا تولدت الخصومات وبانت العداوات بين الأعجام وقواد المقدونيين الذي صاروا يغضبون على الإسكندر وصار الإسكندر يغضب عليهم خصوصًا إذا وشى المتزلفون في حقهم عنده ودبت إلى مهادهم عقارب السعاية فيتصداهم ويعمل على الإضرار بهم فلذا صارت القسوة قاعدة من قواعده وأسلوبا من أساليبه وأول من أصابتهم صواعق غضبه أكابر المتوظفين وأصحاب المقام من خاصته مثل مرمنيون وابنه فيلوتاس وذلك لأنهما تظاهرا على الملك بالعداوة وعارضاه في كل ما كان يبديه من المشروعات وكانوا لا يبالون به ولا يخشون من سطوته إذا تكلموا بحرية الضمير وكشفوا ما غطته المحاباة بغطا الإلباس والتملق كأن ما أدوه من جليل الخدم وأودعوه من خالص الغيرة في واجباتهم حملهم على ذلك فكان سببا لإيقاعهم في مهاوي الهلاك والموت حيث إنه لما طالت الأحوال على هذا المنوال اشتد تعب الملك وكثر قلقه وأيقن أن فيلوتاس المتقدم الذكر اتهم بخيانة وهي أنه علم بوجود عصبة عاملة على قتل الملك فتستر عليها ولم يخبره بذلك فجمع جيوشه للحكم عليه فدافع فيلوتاس عن نفسه غير أن أقواله ذهبت أدراج الرياح وصدر الحكم عليه بالقتل ثم قتل برمنيون خوفًا من حدوث القلاقل والاضطرابات في الجيش أما كليتوس. أخ مرضعة الإسكندر الذي أنقذ حياة هذا الأخير من مخالب المنية زل لسانه يوما فأخذ يمدح فيلبش ويشكر أعماله ويسخر بالملك ويبكت به وبأفعاله ويتأسف على كونه يفضل الأعجام على أبناء جنسه فلما زاد به الغضب والغيظ قتله بضربة رمح فلما فاق من سكرته وانتبه إلى حالته عض على أنامله أسفا ووقع في اليأس والقنوط (٣٢٨) وقتل أيضا كلستين تلميذا

أرسطاطابس وابن أخيه وكان قد شرع في كتابة تاريخ لحياة الإسكندر والسبب الذي حمل الإسكندر على قتله هو أنه أدخل العبارات الخرافية في تاريخ ولادته وأبى أن يركع أمامه وأظهر العتو والتكبر وعزة النفس دعاة إلى ذلك ما رآه من ترك الملك عادات أجداده وتمسكه بعري العادات الفارسية فاندرج في سلك حزب الغرض منه قتل الملك فصار الاكتشاف في الحال على ما أضمره فكبل في الحديد وسيق إلى مقتله فقتل.

وقال بعض المؤرخين «ولم يكن الغرض من جيوش الإسكندر إجراء الفتوحات فقط بل أيضا تنظيم البلاد التي استولت عليها هذه الجيوش ولذا كانت تحتوي على رجال أُخر لسن القوانين وعمل النظام فكان المعسكر لذلك عبارة عن مركز إدارة عظيمة يرى فيها كبار الموظفين من المراقبين ورؤساء الخزائن ومديري الصحة العمومية إلى غير ذلك من التجار والعلماء ولما مات داريوس رأى الإسكندر أن لا فائدة في الحرب فأرسل القائد بسوس إلى بلاد بقطر وترك الجنود يتريضون في مدينة هكتومبيل ثم أخضع لصولته حاكم برطيانه وبرزان واريوبرزان وحاكم ارتباز الذي كان فيما سبق سفيرا في بلاط الملك فيلبش وكذلك اليونان المجمكين الذين ضمهم في الحال إلى عسكره ثم احتل إقليم هرفانيا المشهور بحسن موقعه على ساحل بحر قزوين وحدود بلاد إيران ثم أراد أن يقصد بلاد بقطريانه فمنعه عن ذلك جنوح أهل أريا إلى الثورة والشقاق فعاد إليها وقوض قيام الفتنة ودرس معالمها ولم يبارحها إلا بعد ن استتب الأمن فيها لعلمه أن بقاءها في حالة الاضطراب يؤدي إلى استقلالها ثم أسس هناك مدينة وسماها باسمه لا تزال إلى يومنا هذا مفتاح تلك الجهات وشيد مدينة أخرى تعرف الآن بغندهار ولم يمض النصف من شهر نوفمبر سنة

٣٣٠ حتى قضى الإسكندر على أزمة بلاد آريا وخراسان وأفغانستان وأنزل عسكره بسفح جبل الهندكوش واخترق في فصل الشتاء هذه الجبال الشاهقة. وبينما بسوس المتقدم الذكر يسعى في سبيل الاستقلال بهذه البلاد إذا فاجأه الإسكندر وحكم بصلبه ثم استولى على مدينة كيروبوليس والقلاع السبعة وحين تركها الإسكندر تأججت فيها نيران الفتن غير أنه بحكمته وتدبيره وعزمه أخمد لهيبها. ولما هداء باله وصفاله الوقت تأهل بروكسان بنت أحد أغنياء تلك البلاد ولم يكتف بما فتحه من الممالك الواسعة بل قادته المطامع إلى فتح بلاد الهندوس فمكث سنتين يباشر افتتاحها. وجيش في سنة ٣٢٧ جيشا مؤلفا من ١٠٠٠٠٠ مقاتل من المصريين والفينيقيين والعجم والأريبانيين والبقطريين ليقوموا مقام الجنود التي تركها بمصر وبابل غيرها من المدن التي سماها باسمه. وفي ذلك العهد كانت بلاد بنجاب مقسمة بين جملة رؤساء أكبرهم شوكة يسمى بوروس فلما اضطر هذا الملك لمقابلة الإسكندر أرسل إليه يخبره بأنه في انتظاره على حدود بلاده فقصده الإسكندر ووجده ضاربا على شاطئ نهر الهيداسب بجيوش لا تحصى و٣٠٠ فيل فعبر النهر ونصره الله عليه رغما عن كثرة جنوده ويعد أن تم له تملك تلك البلاد حاول أن يبعث همم عساكره إلى التوغل في وادي نهر الكانج فامتنعوا فلما رأى منهم ذلك وكادوا أن يجاهروا بالعصيان وجه الإسكندر التفاته إلى تحسين أحوال بنجاب وتنظيم أمورها وحينما فرغ من ذلك نزل في النهر ببعض من عساكره تقلهم ألف سفينة أعدت لهذا الخصوص يريد بذلك قطع نهر الهندوس لغاية البحر وإخضاع سكان شواطئ هذا النهر إليه وفي أثناء مسير العساكر على ضفتي النهر تحت أمرة كل من كراتير وهفستيون قاومهم الأقوام المسمون بالماليين أشد مقاومة

حتى كاد أن يموت الإسكندر بما أصيب به من الجراحات البليغة ثم وصل بعد ذلك إلى ملتقى النهرين المسميين بالهيدسب والهندوس حيث بنى مدينة سماها باسمه وقصد إقليم بتاله بقرب مصبات نهر الهندوس. وهناك شيد ثلاث مدن سماها باسمه أيضا ثم دخل في الأوقيانوس الذي كان يجهل اليونانيون ما به من الأخطار الجسيمة المسببة عن المد والجزر ولما قاسى الأهوال في ذلك البحر عدل إلى المسير برا لغاية بلاد جدروزيا فسار في الفيافي والقفار مدة ستين يوما مات في أثنائها ثلاثة أرباع عسكره أما نيارك الذي كان أميرا على الدوننمه فتكبد المتاعب والمشاق حتى لحق بالملك في كرمانيا واستمرت الدوننمه سائرة إلى أن بلغت مصب نهر الفرات فدخل الإسكندر بلدة سوز وكان طول مغيبه عنها سببا لوقوعها في مخالب الفوضى لأن الحكام حنقوا على الأهالي وضربوا عليهم الضرائب الفادحة وصمموا على الاستقلال بمجرد وصول الأنباء إليهم حاملة موت الإسكندر ولما علم منهم ذلك أمر بقتل حكام كرمانيا والعجم وسوزيانا عن آخرهم وجميع من انحصرت فيهم هذه الشبهة وفي أثناء ذلك هرب الخازندار هربال من بابل إلى أتينه ومعه ٥٠٠٠ تلان من الذهب.

ولما وصل الإسكندر إلى سوز (فبراير سنة ٣٣٥) أقام فيها الأعياد دلالة على انتهاء فتوحاته الجليلة وفي هذا العيد تزوج ماية من رؤساء المقدونيين بمئة من بنات أكابر آسيا وتزوج إسكندر باستاتيره بنت داري وهفستيون نديمه بأخت استاتيره وكراتير ببنت أخت داري وبرديكاس ببنت أتروباتبس حاكم بلاد الميد وبطليموس اللاغيدي بسولوقوس بنت أرتباز وقد حذا هذا الحذو ١٠٠٠٠ من المقدونيين فلذلك سوحوا من دفع الضرائب وجميع ما يماثل ذلك ولتعميم الأفراح وإزالة الأتراح قام الإسكندر بوفاء ديون عساكره التي كانت

تبلغ ٢٠٠٠٠ تلان أي ١٠٠٠٠٠٠٠٠ من الفرنكات على أن هذه الإحسانات الحميمة والمكارم التي لا تقع تحت حصر كانت عقيمة العاقبة لأن الإسكندر لما أراد أن لا يفرق بين عساكر آسيا وعساكره وأن يجعل حرسه الخصوصي (أجيما) من عساكر آسيا بلغ بين المقدونيين مبلغه فنادوا بأن إتباع هذه الخطة موجب لفصم عرى الجيش واضمحلال أعضائه فدعاهم الإسكندر إلى السكون وعدم التظاهر بالتعصب ثم أعقب ذلك بتنفيذ ما صمم عليه فجعل حرسه الخاص من الأعجام وصرف حرسه المقدوني فاستماحه العصاة العفو فلبى ملتمسهم وغض الطرف عما سلف منهم وأولم لذلك وليمة شائقة وهب فيها لكل عسكري تلانا واحدا من النقود أي ٥٠٠٠ فرنك ثم صرفهم إلى بلادهم واتخذ بدلهم عساكر من أهل البلاد التي فتحها وتزوج الإسكندر بجملة نساء أسيويات وولد له من واحدة منهن لعلها روكسان ولد سماه إسكندرايغوس ولما عاد إلى بابل وجد بها رسلاً أتوا لتهنئته من جميع جهات الدنيا ثم أنه صمم على إجراء فتوحات جديدة وأعد لذلك المعدات الهائلة وكان في نيته أن يدور حول جزيرة العرب بحرا وأن يفتح بلاد إيطاليا لينتقم من أهلها الذين قتلوا صهره إسكندر ملك بلاد الأيبير وكان في إمكانه تنفيذ هذا المشروع لزيادة نظام عساكره المشاة عن نظام العساكر الرومانية.

وحدد ميعاد سفره في الحادي والعشرين من شهر دزيوس (يونيه) غير أن الحمى أصابته في السابع عشر من هذا الشهر وازداد به المرض مدة أسبوع وصار في حالة لا يرجى معها شفاؤه وكانت عساكره أنباء مرضه تنصرف شيئا فشيئا إلى أن فارقت روحه هذه الدنيا (شهر يونيه ٣٢٣).

وكان موت الإسكندر عنوانا على وقوع المشاحنات والمخاصمات التي أوفضت بعائلته إلى الدمار والخراب وبملكه إلى التوزع والانقسام وبلغ عدد المدن التي أسسها في مدة حياته ٧٠ مدينة صارت فيما بعد مستعمرات يونانية امتدت بسببها شوكة اليونان في جميع المشرق لغاية نهر الهندوس وكان الإسكندر سخيا كريما فمن أفعاله الحميدة التي تدل على ذلك تأسيسه جميع الهياكل التي هدمت في بلاد هيلاده بمصاريفه الخاصة ومنحه أرسطاطاليس مبلغ ٨٠٠ تلان أي ٤٠٠٠٠٠٠ فرنك مكافأة له على اكتشافاته في علم التاريخ الطبيعي.

وكانت نتيجة هذه الحروب انتشار التجارة وظهور فوائد الملاحة التي كان الإسكندر مشغوفا بتعضيدها وتقدم العلوم عقب وثوق عرى الارتباط والعلاقات بين المصريين والكلدانيين والهند فاتسعت بذلك دائرة المعلومات وكثرة الاكتشافات والاختراعات.

ومات الإسكندر وعمره ٣٣ سنة فقط وكانت عواطفه تميل إلى الكرم والخصال الحميدة إلا أنه كان يظهر الشدة والقساوة في بعض أعماله وكان لا يتحمل أن الغير يتكلم أمامه بالحرية وطلاقة اللسان كما فعل ذلك كلستين وكليتوس المتقدم ذكرهما. وقد أدى به حب الفخر والطمع في الشهرة والتظاهر بالفتوة إلى إدراك مشروعات هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة كتصميمه على فتح بلاد الهند وأفريقيا وغرب أوروبا وهو وإن لم ينل تحقيق هذه الأماني غير أنه ذهب إلى بلاد لو تمكن من الدخول فيها جيش آخر غير جيشه لما أمكنه العود منها ولما بقي له أثر يذكر وهو الذي أسس المدن العظيمة والمباني

الجسيمة التي تدل على شدة عارضته وقوة إدراكه كإسكندرية وهراة وقد استحق بما اتصف به من علو الهمة وصدق العزيمة وثبات الجأش أن يبقى اسمه مخلدا على صفحات عقول الرجال عنواناً على الشجاعة والفتوة والكمال.

***

قبل أن مضى يومان من تاريخ زواج فيلبش بأولمبياس رأى هذا الملك أنه ختم على بطن امرأته بختم مرسوم عليه صورة أسد فأحضر المعبرين وقص عليهم هذه الرؤيا فارتابوا من أمر زوجته ونصحوه أن يراقب سلوكها ويباشر سيرها فلما سمع ذلك أحدهم قام وقال إن هذه الرؤيا هي بخلاف ما سمعه الملك والحقيقة أن الملكة حامل ثم أيد مدعاة بقوله «حيث أنه لا يصح الختم على المراكب الفارغة فلابد وأن أولمبياس تحمل في بطنها جنينا ستكون شجاعته مثل شجاعة الأسود».

وقد أظهر الإسكندر منذ صغره عواطف تدل على اعتدال شهواته وعدم ميله إلى انتهاب المسرات وضياع الأوقات وتثبت شدة ولعه باكتساب الفخر والمجد.

واتفق أن سأله بعض أصحابه ذات يوم هل إذا كان يريد الذهاب إلى الألعاب الأوليمبية لينال الجوائز وكان الإسكندر لا يعلق باله بتلك الألعاب فقال له إني أذهب على شرط أن يكون أخصامي في الملعب الملوك الفخام والأمراء العظام.

وحدث أن أقبل من بلاد العجم جملة من الرسل في أثناء مغيب فيلبش فقابلهم الإسكندر بالترحاب ولم يتركهم برهة واحدة بل جلس معهم وخلب عقولهم بألفاظه الساحرة وآدابه الباهرة وطلب منهم أن يجيبوه عن أسئلة مهمة جدا كالمسافة التي بين مقدونيا وبلاد العجم والطرق الموصلة إلى الجهات السحيقة من آسيا وبحث عن منهم سلوك ملكهم مع رعيته وأطلع بواسطتهم على قوة الأعجام العسكرية وشوكتهم المالية وغير ذلك من الأسئلة التي بمجرد ما طرأت أذن هؤلاء الأعجام اعتقدوا أن مهارة فيلبش الذي كان يضرب بها الأمثال عندهم لا تعدل ذكاء ابنه وتوقد ذهنه. وكان الإسكندر كلما علم أن أباه فتح مدينة عظيمة أو انتصر نصرة كبيرة يظهر الغم والحزن ويبكي بكاء شديدا وقال لمن حوله من أصحابه «أصدقائي إن والدي لم يترك بلدة إلا واستولى عليها كأنه عاهد نفسه على أن لا يترك شيئا يكون لنا من ورائه الفخر وحسن الذكر في المستقبل».

واتفق أن أحدهم قدم إلى الملك فيلبش جوادا كريما طمعا في أن يبيعه إليه بمبلغ ثلاثة عشر تلانا فذهب الملك وبعض حاشيته إلى السهل يجربوا هذا الجواد فلما اختبره وجده حرونًا شقيًا لا يقرب منه أحد إلا جمح وحرن وكان الإسكندر في جملة من حضر فقال لأحدهم «إن هذا الجواد لا مثيل له وهم يريدون فقده من أيديهم لما اعتراهم من الخوف وعدم خبرتهم بالركوب» فسمع فيلبش هذا الكلام ولم يجاوبه عليه من باب الإغضاء فكرر الإسكندر ما قاله مرة أخرى وأظهر أسفه من رجوع صاحب الجواد خائبا فقال له فيلبش «لماذا تقدح في من هم أكبر منك سنا وعلما هل أنت أمهر منهم وأقدر على قود هذا الجواد» فقال إسكندر لاشك أني أقوده أحسن منهم فقال فيلبش «وإن لم

تفعل ما تقول فما يكون عقابك» فأجاب «دفع ثمن هذا الجواد» فلما سمع الحاضرون منه ذلك ضحكوا ضحكا عاليا ثم اتفق فيلبش مع ابنه بأن من يأتي الأمر على خلاف ظنه يكون ملزومًا بدفع ثمن الحصان فورًا فاقترب إسكندر من الجواد وقبض على زمامه ووجه وجهه للشمس لأنه علم أن جموع الجواد ناشئ من خوفه من خياله الذي كان لا يفارقه أينما سار وأخذ يواسيه بكلامه ويطبطب عليه بيده إلى أن هداء وسكن وعند ذلك ألقى الإسكندر برنسه على الأرض ثم استوى على ظهر الجواد بخفة عظيمة ومهارة تفوق الوصف ولما استقر وتمكن ضيق عليه الزمام أولا بدون أن يضربه وحينما رأى أن جموحه قد هبط وأنه يطلب الجري ضم فخذيه وتركه يجري بسرعة عظيمة فأخذ العجب فيلبش وأرباب معيته حتى أنه لما رأوه عائدا صفقوا له استحسانا ومدحوه على شجاعته وبسالته أما فيلبش فقام إليه وضمه إليه وقال له «يا ولدي إن مملكة مقدونيا وما يتعلق بها من المستعمرات لا تكفيك فيجب عليك أن تبحث على ممالك أخرى تسع شجاعتك وتكون أهلا لفضلك وفتوتك».

ولما تزوج فيلبش بكيلوباترا بنت أخت أتال وأقام لذلك العرس شرب أتال المذكور شربا كثيرا حتى ضاع وعيه فانتصب قائما وطلب إلى المقدونيين أن يسألوا الله أن يمنحهم من فيلبش وكيلوباترا خلفا صالحا وارثا شرعيا أهلا للجلوس على سدة البلاد المقدونية بعد فيلبش فلما سمع ذلك الإسكندر اشتعلت نار غضبه وغلت مراجل غيظه وقال لأتال «أيها الخائن الخادع كيف تعتبرني أني نسل الزنا ووليد الحرام» ثم رماه بكأس كان بيده فاستل فيلبش سيفه وقام إليه ليقتله عقابا له على اجتراحه هذا الذنب الفظيع غير أنه وقع على الأرض قبل أن يلحقه فعند ذلك قال الإسكندر بملء صوته «أيها المقدونيين

انظروا إلى ملككم كيف سقط على الأرض طريحا حينما أراد الذهاب من مائدة إلى مائدة أخرى وحيث أنه يتهيأ للذهاب من أوروبا إلى آسيا بجيشه الجرار فكيف يصنع».

obeikandl.com

البطالسة

ولما مات الإسكندر اجتمع حول سريره قواد جيوشه وخاصة أحبائه كبرديكاس وليونا وانتيباتر وليزيماك وبيطون وبوسست وبطليموس وتشيع كل منهم إلى تولية ولد من أولاد الإسكندر فتشيع برديكاس إلى الوليد الذي ستضعه روكسان بنت ملك بقطريانه ونيارك لابن برسبن بنت داري أما بطليموس فكان مشربه مخالفا لذلك حيث قال «ألم نقهر الأعجام وندرجهم في طي طاعتنا إلا لنضعهم بأيدينا على تخت البلاد المقدونية» ثم استصوب بعد ذلك تسليم قيادة هذه الممالك إلى يد مجلس مركب من أكابر قواد إسكندر ورؤساء عساكره وبينما هو يقول ذلك إذ سمع صوتًا من خلال الجمع يقول «أن من العدل أن يكون أريديه أخو الإسكندر وارثا له وأن يلقب بفيلبش وهو اللقب الذي يتغزل فيه المقدونيون». وكان هذا القائل هو مليا جر فانضم في الحال إلى حزبه الذي كان عبارة عن جميع الجيوش المشاة وعمل على تأييد قوله وتنفيذ نيته فعارضه كل من بطليموس وبرديكاس وليونا والعساكر الفرسان ولكن لم تجد معارضتهم نفعا إذ ظهر أريديه متحليا بالملابس الملوكية فبايعه أغلب الشعب وجميع العساكر المشاة ملكا على مقدونيا وما يتعلق بها من المستعمرات ولما تم له ذلك سلم رئاسة الأقاليم والحمالات إلى ندمائه وضباط عساكره وبعد ذلك تفرغ إلى تحنيط جثة الإسكندر وكان قد مضى عليها سبعة أيام ولم يلحظها أحد بعين الاعتناء والاعتبار.

وفي هذا اليوم استلم بطليموس زمام مصر وليبيا وبلاد العرب المجاورة لمصر وكان يطلق على هذه الممالك اسم المملكة المصرية ولم تتناولها يد الانقسام كباقي الممالك الأخرى بل ضمت إليها بعض أملاك خارجية كجزيرة قبرص وغيرها بطريق الحرب وفي مدة مغيب بطليموس ببابل كان كليومين الذي نصبه الإسكندر حاكما على مصر قبل سفره منها يحكم بالنيابة عنه لحين حضوره.

obeikandl.com

بطليموس سوطر الأول بن لاغوس

الملقب عند العرب بالمنطقي

حكم من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٢٨٥ ق ـ م

كان من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وذوي الآراء الصائبة والتدابير السديدة منهم انتهز الفرصة في وقت السلم لتنظيم مدينة الإسكندرية وتحسينها فشيد الهياكل العديدة والمباني المفيدة وأمال إليه قلوب المصريين وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل الفضائل واجتناب الرذائل وخصص لسكناهم جزءا من سرايته ومكانا لحفظ مجموعات التالف النافعة التي تتضمن جميع العلوم والمعارف وسائر أنواع الآداب التي وصلت إليها عقول الأمم السالفة من الرومان واليونان والهنود والمصريين ويحكى عنه أنه ألف كتابا ضمنه تاريخ فتوحات الإسكندر وهو الذي حقق أماني هذا الفاتح في الإسكندرية فوطد شوكة هذه المدينة العظيمة ومنحها الأهمية التي لا تزال متمتعة بها إلى الآن ثم جمل لباسها بتشييد المباني العظيمة التي لم يبق منها أثر كالمجتمع المشهور باسم مدرسة الإسكندرية وفتح الطرق التجارية الموصلة إلى جهات الدنيا أما الفلكيون الذين نبغوا في أيامه فكانوا سببا لتقدم علم الملاحة باكتشافاتهم المفيدة النافعة وأرصادهم التي وصلت إلينا كأرصاد الفلكي الشهير يتموخارس في سني ٢٩٥ و٢٩٤ و٢٨٣ قبل الميلاد وعهد بطليموس إلى كل من استراتون الشاعر وفيليتاس تهذيب ابنه بطيموس فيلادلف فأثمرت تربيتهم فيه وجاءت منطبقة على مرام أبيه.

ولما كانت السنة التاسعة والثلاثون من حكمه اهتم في توطيد الملك لبنيه فتنازل عنه ليكون حلفه حاكما وهو على قيد الحياة وكان لبطليموس زوجتان رزق منهما بثلاث أولاد بواحد من أوريديس وبالآخرين من بنيريس ولقب الأول منهما فيلادلف والثاني أرغوس الذي قتل متهما بتواطئه على الملك أبيه فطلب بطليموس من أصحابه أن ينتخبوا له ولدا من هؤلاء الثلاثة ليكون خليفته على ملكه ولم يكن من مقتضى لتلك الاستشارة إذ أن العادة الجارية كانت تقضي أن يكون ابن أوريديس هو ولي العهد بما أنه أكبر أخوته وهو أمر واضح ظاهر والذي ذكر الملك بذلك هو دمتريوس دوفالير فلم يقبل منه الملك تلك النصيحة وأراد أن يكون خليفته الأكبر من أولاد بنيريس ولما عقد عزمه على ذلك تنازل عن الملك له بدون حصول اضطراب لأن الأهالي كانوا يساعدونه دائما على تنفيذ ما يقترحه من الأفكار مهما خالفت العادات وضادت الشريعة وما ذلك إلا من حبهم له وميلهم إليه لأنه قام بأعباء المملكة وتدبيرها قيام حزماء الملوك وفصلائهم ولما كان له من الأمر والنهي وقَوْد العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وغير ذلك من الأعمال الجليلة التي بها أعاد لمصر بهجتها الأصلية ورونقها القديم فصار حقيقا بمحبة رعيته له لهذا الحد.

ولما تنازل عن الملك مال طبعه للوحدة وعَوَل على الانفراد والعزلة فصار محفوفا بالراحة والنعيم وصار يسمع اسمه مقرونًا باسم الإسكندر الأكبر في الاحتفال العمومية والخطب الدينية.

بطليموس الثاني فيلادلف أوفيلوزفوس بن سوطر
(من ٢٨٥ إلى ٢٤٧)

لما أدال الله تعالى له وصرف الملك إليه هبت فطنته إلى تأييد العلاقات بينه وبين الممالك الأجنبية ليكتسب معاهدتها ويفوز بمودتها خصوصاً الدولة الرومانية فإنه لما علم ما عليه عساكرها من التدرب على معاناة الطعن والضرب والثبات في ميدان الحرب عجل بتأسيس الصلات بينها وبينه وكانت هذه أول معاهدة حصلت بين حكومتي رومه والإسكندرية ومما يخلد لهذا الملك حسن الذكر وطيب الأحدوثة تتميم المباني الباذخة والهياكل الشامخة التي كان أبوه شرع في تشييدها وتأسيس كل ما يكون الغرض منه المنفعة العمومية كورش الصنائع والمدارس العالية وغير ذلك ولئن بقي ذكر هذه الأعمال مخلد أمدي القرون العديدة إلا أن تاريخ إجرائها لا يزال مجهولاً لحد الآن.

ولم تشغل أعباء الحرب هذا الملك عن تعضيد الفنون والمعارف فإنه اهتم بالمكتبة واعتنى بشؤونها فزاد في كتبها عددًا وافراً حتى أصبحت رياض العلوم مزهرة وأشجار الحكمة يانعة مثمرة وبذلك كانت أيامه غرة في جبهة الدهر أو درة في تاج الفخر وقد حضر الملك سوطر في الاحتفال الذي صُنع إكراما وإجلالا لتتويج الملك فيلادلف وكان هذا الاحتفال في وسط شتاء السنة التي تلت تنازل الملك سوطر أي في أول سنة ٢٨٤ ق-م. ولما اختار هذا الملك ابنه فيلادلف خلفا له على عرش الملك ترك سيرونوس ابنه من أوريديس البلاط الملوكي قاصدًا ليزيماك ملك تراسه لأنه لما رأى أن حقوقه التي تخوله الصعود

على سرير الملك بعد أبيه سوطر مهدورة لم يستطع البقاء مع هذا الملك وكانت ليزاندره شقيقة سيرونوس متزوجة بأغا طوقله بن ليزياك من شقيقة فيلادلف فلما خشيت هذه الأخيرة أن ابنها يستعبد أولادها بعد موت والدهم عملت على إعدامه فنجحت في مشروعها ولم يبد زوجها أدنى إشارة تدل على انزعاجه من ارتكابها هذا الإثم الكبير ولما راع هذا الأمر ليزاندره أخت سيرونوس وأرملة أغاطوقله احتمت هي وأولادها وأخوها بسيلرقوس ملك الشام وأوزعت إليه أن يأخذ بثأرها ويحارب الملك بطليموس فأبي أن يشد أزرهم في تنفيذ هذه الاقتراحات نظرا لما كان بينه وبين هذا الملك من العلاقات الودية والعهود السلميه غير أنه عزم على محاربة ليزياك وإفناء عساكره فلما نمى هذا الخبر إليه جيش الجيوش وذهب إليه طمعا في الهجوم ومات في أول موقعة ولم يتم لسيلوقوس الاستيلاء على مقدونيا لأنه لما ظفر بعدوه وقصد تلك البلاد قبله سيرونوس وفرق خزائنه على العساكر واستولى على مقدونيا.

وحينما علم بطليموس أن أخاه ترك بلاط الملك ليزياك أرسل إلى هذا الأخير يخطب منه ابنته أرسينوه ولما مات أبوه سوطر لم يبرح عن فكره ما قاله الفيلسوف دمتريوس دوفاليز إلى هذا الملك عندما طلب منه إبداء رأيه في تعيين خليفة له فنفي هذا الفيلسوف الحكيم إلى بلاد لم يكن ليقوى على تحمل ما رآه فيها من العذاب وفي سنة ٢٨٢ أتت أرسينوه إلى مصر فتزوج بها فيلادلف وكان قد تمم سوسترات بناء المنارة التي استغرق بناؤها اثنتي عشرة سنة ويحكى أنه لما أبى أن يأذن لسوسترات بوضع اسمه على المنارة تذمر سوسترات من ذلك ونقش اسمه عليه غير ملتفت إلى أوامر الملك إنما وضع عليه طبقة من اللبن مؤملا أن اسمه ينكشف للخلف بعد زوال هذه الطبقة

وبعد مضي سنتين من هذا العهد أرسل سيرونوس ملك مقدونيا إلى أخيه فيلادلف رسلا يقولون له أن سيرونوس احتراما لسيرة أبيه قد نسي الذنب الذي ارتكبه هذا الأب بحرمانه من وراثة الملك بعده ثم مات بعد ذلك بثلاثة أشهر فلم يصله جواب أخيه وربما كان تلقيب بطليموس بفيلادلف (أي بحب أخوته) من باب التهكم والسخرية لأنه أمر بقتل أخيه أرغوس وميلياجر الذي كان في جزيرة قبرص لما نسب إليها من حض الأهالي على رفع لواء العصيان وكذلك أساء معاملة زوجته أرسيوه بنت ليريماك إما لأنها حاولت الإيقاع به وإما لما أكنته من الضغائن والحقد لأرسينوه الأخرى أرملة ليريماك وأخت فيلادلف وإما لأن هذا الأخير أسرت قلبه محاسن أخته فهجر الأخرى هجرا قاسيا ثم طلقها ونفاها بمدينة قوموطوس من صعيد مصر وكان قد رزق منها ببنت وولدين ثم أنه تزوج بأرسينوه أخته من أبيه وأمه وهذا بصدد ما أتت به النصوص الشرعية والقواعد الدينية وقد أمر بنقش اسمها وصورتها على النقود ومات في آخر شتاء سنة ٢٤٧ بعد أن حكم ٣٨ سنة.

obeikandi.com

وصف الاحتفال المتقدم الذكر

ولمناسبة تتويج هذا الملك حصل بالإسكندرية احتفال شائق لم تر هذه المدينة لحد الآن حصول ما يماثله فيها وقد رأينا من المستحسن أن نورد وصفه مقتبسا من تاريخ الإسكندرية تأليف كليكسين الردوسي فنقول إنه بعد أن وصف الصيوان الملكي الذي نصب لهذا الخصوص بأنه كان مزينا بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والسجاجيد العجمية النفيسة أخذ يصف سير هذا الاحتفال فقال:

«وكان يرى في مقدمته رايات الطوائف الدينية المختلفة وغيرهم من أصحاب الوجاهة والأعيان اليونانيين يتلون بعضهم بعضاً كل فريق على حسب مقامه وما امتاز به من الرتب وكان أغلب هؤلاء البوفان على عربات تجرها الجياد الصافنات وكان الكهنة والكاهنات يؤدون ما عليهم من الواجبات الدينية كالصلوات والأدعية ثم يلي ذلك جميعه عربة أخرى بأربع عجلات عرضها ثمانية أذرع ويجرها ستون رجلا وفوق هذه العربة تمثال ارتفاعه ثمانية أقدام عليه برنس أصفر منسوج بالذهب وكانت هذا التمثال يسكب اللبن في الكاسات ويفخم به الأواني العسجدية وفي يده اليسرى ترس منقوش الأطراف وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص مصنوع بشكل العنب ومرصع بالأحجار الكريمة.

ثم يتبع ذلك عربة أخرى بأربع عجلات طولها ٢٠ ذراعا وعرضها ستة عشر يجرها ٣٠٥ رجل وهي تحمل معصرة عنب يباشر إدارتها ستون من

القينات الحسان وجميعهن دائبات على عصر هذا الثمر مع الترنم بألحان وأغاني تطرب السامعين وكان النبيذ ينسكب من جانبي العربة مدة مسير المحفل.

وبعد هذا القسم كان يرى الحاملون للأواني الذهبية على اختلاف أنواعها وتباين أشكالها والخزانة المحتوية على المشروبات والمرطبات وكان يتبع ذلك ١٦٠٠ طفل لابسين برانس بيضاء ومتوجين بالأزهار ومنهم ٢٥٠ لحمل القماقم الذهبية و٤٠٠ لحمل المباخر الفضية و٣٢٠ لحمل أشياء آخر ذهبية وفضية ثم يلي ذلك باقي الأطفال وبأيديهم آلات المدام التي كانت عبارة عن ٢٠ من الذهب و٥٠ من الفضة و٣٠٠ من باقي أنواع المعادن ولا يجمل بنا أن ننسَ العربة العظيمة ذات الأربع عجلات التي كان طولها ٢٢ ذراعا وعرضها ١٤ ذراعا ويجرها ٥٠٠ رجل فإنه كان على هذه العربة ما يماثل مغارة كبيرة مدهونة الخارج بلون أحمر وكان يظهر من هذه المغارة أثناء الطريق أنواع الطيور كالحمام واليمام وهي مقيدة الأرجل بخيوط طويلة حتى يتسنى للمتفرجين الاستيلاء عليها وكان بهذه المغارة ينبوعان ينمط من أحدهما اللبن ومن الآخر النبيذ وكانت جميع العذاري التي تحيط بهذه العربة متوجات الرؤوس بالأكاليل الذهبية ثم يي جميع ذلك عربة وعليها صورة أجهزة الإله باكوس (إله الخمر عندهم) عند عودته من بلاد الهند وكان هذا الإله متربعا على فيل جسيم الجته ولابسا ثوبا أحمر قاني وتاجا من الذهب وماسكا بيده ترسًا من ذهب وحذاءً مذهبًا أينًا وكان على رقبة الفيل غلام متوج بورق الصنوبر من الذهب وبيده اليمنى قرن ماعز يشير بها إلى جهة من الجهات وكانت جميع الأدوات التي على ظهر الفيل مصنوعة من الذهب وحول رقبته غصن شجرة من الذهب كذلك.

ثم يتبع ذلك من الحاشية ٥٠٠ جارية مؤتزرات بالبرانس الحمراء وممنطقات بمناطق من الذهب وأما الجواري اللاتي كن أمامهن ويبلغ عددهن ١٢٠ جارية فكان على رؤوسهن تيجان من الذهب على شكل ورق الصنوبر وكان وراءهن ١٢٠ غلاما متسلحين بأسلحة البعض منها من فضة والبعض الآخر من التوح.

ثم يلي ذلك من الحمر عدد عظيم منقسم إلى خمسة أقسام يركب عليها غلمان متوجون وكانت سروج هذه الحمر من الذهب والفضة ثم يأتي بعد ذلك ٢٤ عربة تجرها الفيلة الكبار و١٦٠ أخرى تجرها الجدي وأخرى تجرها حيوانات متنوعة غريبة الشكل والصورة وكان يوجد سوى ذلك عربتان يجر واحدة منهما نعامتان وعربات أخر يجرها حمر الوحش وكانت هذه العربات تحمل غلمانا ملابسهم كملابس ساقة العربات الملوكية وعلى جانبيها غلمان آخر أصغر سنًا من هؤلاء وهم متسلحون بالتروس والمزاريق وعليهم الملابس المنسوجة بالذهب والفضة.

ثم ظهر للناظرين بعد ذلك جملة عربات يجر كل واحدة منها جملان وآخر تجرها البغال وكان فوق هذه العربات أنواع من خيام الأمم الأجنبية المختلفة وكان يرى فوق هذه الخيام نساء هنديات كالسبايا وكان من الجمال المتقدمة الذكر ما يحمل ٣٠٠ قطعة من المواد اللازمة للبخور وما يحمل ٢٠٠ رطل من الزعفران وغيره من الأشياء العزيزة الوجود وبجانب هذه الجمال حبشان يحملون الهدايا الآتي ذكرها وهي ٦٠٠ سن من أسنان الفيل و٢٠٠٠ كتلة من الأبنوس و٦٠ قطعة من الذهب والفضة ومن السبائك الذهبية ثم بأن بعد

ذلك اثنان من الصيادين وبأيديهما سهام من الذهب ووراءهما ٢٤٠٠ كلب متضاربة الأشكال مختلفة الأنواع منها ما هو ممن بلاد الهند ومنها ما هو من بلاد هرقانيا ومر عقب ذلك ١٥٠ رجل يحملون أشجارا متنوعة وعلى أغصانها أنواع الطيور التي تطرب السامعين بحسن نغمها ورقة تغريدها ثم أعقب ذلك أقوام يحملون على رؤوسهم أقفصة من الذهب فيها أنواع الببغا والطواويس والديوك البرية وهي تصيح بأصواتها المختلفة وتجذب النظر لجمال منظرها.

وبعد أن أفاض المؤلف في الحديث على أشياء أخر أطنب في شرح أوصاف أنواع الحيوانات كل نوع على حدته فقال: وكان يوجد سوى جميع ما سلف ١٣٠ كبشا من الحبشة و٣٠٠ من بلاد العرب و٢٠ من جزيرة النجريون (من جزائر الأرخبيل) و٢٦ كبشا أبيض من بلاد الهند وثمانية مثلهم من بلاد الحبشة ودب أبيض كبير وستة عشر نمرا وأربعة عشر فهدا وظرافة وكركدن.

ثم بدا أثر ذلك عربة أسفر من ورائها جملة نساء متحليات بأحسن الملابس وأحلى الحلل وكانت تسمى كل واحدة منهن باسم بلدة من بلاد اليونان الأصلية أو البلاد اليونانية الموجودة في آسيا وكانت تحت حكم الأعجام وعلى رأس كل واحدة منهن تاج من الذهب.

وما أتينا على شرحه الآن من أحوال هذه الاحتفال ليس إلا قطرة واحدة من بحر الوصف الكلي الشامل له لأن المؤلف كليكسين الذي بني وصفه هذا على دعائم المشاهدة وليس العيان لم يشرح من هذا الاحتفال إلا ما كان الذهب أو الفضة داخلا في تركيبه على أنه كان يوجد أشياء أخر لا تقع تحت حصر

تستجذب الفكر وتستلفت النظر كالخيول الكريمة والحيوانات المفترسة من أسود وغيرها.

وكان يرى بعد ذلك ٦٠٠ رجل منهم ٣٠٠ من الموسيقيين وكانت الفياتير وآلات الغنا التي بأيديهم مصنوعة من الذهب والتيجان التي على رؤوسهم من هذا المعدن كذلك ثم مر بعدهم ٢٠٠٠ ثور من لون واحد وقدر واحد وقرونها وجباهها مصفحة بالذهب وكان بين قرني كل واحد تاج وعقد من الذهب الخالص أيضا ثم أعقب ذلك سبعة نخيل ارتفاع كل واحدة منها ٨ أذرع وهكيل صغير محيطة ٤٠ ذراعا والكل من الذهب وكان يوجد خلاف ذلك عدد عديد من التماثيل الذهبية التي كان يبلغ ارتفاع الواحد منها ١٢ ذراعا وحيوانات أخر متوحشة تفوقها كبرا وتربو عليها علوا كالنسور التي كان يبلغ ارتفاع الواحد منها ٢٠ ذراعا وكان يوجد سوى جميع ما تقدم ٣٢٠٠ تاج من الذهب من ضمنها تاج محيطة ٨٠ ذراعا مرصع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة وهو خاص بالاحتفالات الدينية والأعياد المذهبية ثم أسفرت بعد ذلك بدور جملة جوار لابسات أحسن الملابس والحلل وحاملات تيجانا من الذهب يبلغ ارتفاع أحدها ذراعان ومحيطة ستة عشر ذراعا ولا يجمل بنا أن ننسى الدرع الذهبي الذي كان طوله ذراعان والتاج الذي كان على شكل ورق الصفصاف وكان مرصعًا بالجواهر والأحجار النفيسة وأن نحمل ذكر العشرين ترسا التي كانت مصنوعة من الفضة والستة وأربعين سلاحا والأحذية الذهبية التي كان طول الواحد منها ثلاثة أذرع والاثني عشر حوضا المصنوعين من الذهب كذلك والكاسات التي لا تقع تحت حصر والستة وثلاثين قدرة المملوءة بالنبيذ والخمسين سبتًا المشتملة على العيش وغير ذلك

من الموائد المختلفة والخزانات المحتوية على الأواني الذهبية والقرن الذي طوله ٣٠ ذراعا ومما لو تصدينا إلى شرحه لخرجنا عن موضوع الكتاب.

ثم يتبع جميع ذلك ٤٠٠ عربة تحمل الأواني الفضية وعشرون تحمل الأواني الذهبية و٨٠٠ المواد العطرية وبالاختصار فكان جميع هذا الموكب محفوفا بكوكبة من الفرسان والمشاة المسلحين بالأسلحة الذهبية وكان عدد المشاة ٥٧٦٠٠ والفرسان ٢٣٢٠٠.

obeikandl.com

بطليموس الثالث أفرجيطه الأول أو أوراخيطس
(من ٢٤٧ إلى ٢٢٢)

هذا الملك هو ابن بطليموس الثاني فيلادلف وأرسينوه بنت ليرياك ولما تزوج فيلادلف بشقيقته أرسينوه اتخذت هذه الأخيرة ابن ضرتها ابنا لها ولذلك لما تولى أفرجيطه وقام بالأمر بعد أبيه لم يقع شيء من الاختلال الذي يحدث غالبا في مثل هذه الأحوال.

وكان حكم هذا الملك على الديار المصرية بشير فلاحها وسفير نجاحها إذ أخذ يعبي الذخائر ويجيش الجيوش التي نشرت ألوية سطوته ورفعت أعلام شوكته في بلاد آسيا فاستولى بها تدريجا على الأقاليم الموجودة بالشاطئ الأيمن من نهر الفرات ثم جد يتوغل في البلاد التي وراء هذا الإقليم ففتح بابل وسوزيانا والعجم وأخذ يخرب الحصون ويدمر القلاع حتى أناخ على بقطريانه وقد سر عموم المصريين من هذه الفتوحات خصوصًا من فتح بلاد ا لعجم لأنه استرجع لهم ما سلبه الملك قمبيز من هياكل المدن الموجودة على شاطئ النيل أيام كانت هذه البلاد تئن من شدة الضيق واللأوى في عهد هذا الملك الجائر وفي أيامه أذعن له ملك الشام بالطاعة وأدى له الإتاوة.

وقد تقدمت العلوم في أيامه تقدما حثيثا حتى أنه انهمك على اقتناء الكتب النفيسة وكان يشتريها بدون نظر إلى غلاء ثمنها وارتفاع سعرها وممن اشتهروا بالمعارف والعلوم في أيامه كاليماك وليكوفرون وأبوللونيوس وكنون وأريسطارق وأرسطوفانس الذي خلف زينودوت في وظيفة أمين لمكتبخانة

الإسكندرية وكان أرستولس وكنون وتيموخاريس منكبين على تدريس العلوم الفلكية ووضع أريسطارق القواعد الأولى من هذا الفن وقال بحركة الأرض فلذا أتهم بالكفر وقلة الديانة وقلة الديانة أما أبوللونيوس فقد أخنى على ذكر من سلفه من الرياضيين بما أعجز به أهل عصره من الاكتشافات الرياضية ومات أفرجيطه بعد أن حكم ٢٥ سنة قضاها في نشر العلوم وتعضيد المعارف.

وقد وجد بمدينة أدوليس من بلاد الحبشة حائطا مكتوبا عليه ما يأتي أن الملك الأكبر بطليموس بن بطليموس بن أرسينوه وحفيد الملك بطليموس والملكة بنيريس الإلهة السوطريين الذي هو من نسل هرقول الجبار بن المشترى (من جهة أبيه) ومن نسل ديونيزوش بن المشترى (من جهة أمه) قد تربع في دست الملك بعد أبيه وصارت بلاد مصر وليبيا وسوريا وفينيقيا وقبرص وليسيا وكاريا الخ في قبضته وحوزته وقصد بلاد آسيا بجيش جرار من المشاة والفرسان برا وبحرا وبالفيلة المجلوبة له من بلاد الحبش بأمره وبأمر أبيه ودربها بمصر على الحرب والكفاح فكانت أقوى عضد له على الاستيلاء على الجهات المجاورة لنهر الفرات وبلاد سيلسيا وبامفليا ويونيا وهلسبون وتراسه وحيازة أموال هذه الممالك وأفيال بلاد الهند.

ثم أخضع لسطوته رقاب الملوك الحاكمين على هذه البلاد واجتاز الأنهار فتغلب على الجزيرة وبابل وسوزيانه والعجم وميديا ثم أخذ ما سلبه الأعجام أيام حكمهم بمصر من الآلهة والأشياء المقدسة وأرسل ذلك كله إلى مصر مع الكنوز التي أخذها من تلك البلاد».

بطليموس الرابع فيلوباطور (محب أبيه)
(من ٢٢٣ إلى ٢٠٥)

كانت بلاد الشام في أيامه تابعة لمصر فلما رأى انطبوخوس ما عليه بطليموس من الانهماك على الشهوات والاشتغال باللذات أراد نزعها من يده وحينما سمع بذلك بطليموس ترك مدينة منفيس وقصد مدينة بيلوز (بقرب بورسعيد والعريش) بجيشه وأمر بفتح الترع ليغرق خارج هذه المدينة ظنا منه أن ذلك من أعظم وسائل الدفاع فلما وصل هذا النبأ إلى أنطيوخوس عدل عن مهاجمة بيلوز واكتفى بالاستيلاء على الجهات المجاورة لتلك المدينة وإخضاع المدن السورية بالقوة أو بالحيلة ولم يتمكن بطليموس من إعاقة هذه البلاد بسبب سوء تدبير وزيره سوزيب وأشغال قلبه بمحبوبته أغا طوفله وبعد مضي سنة كان أنطيوخوس فيها مشتغلا بفتح بلاد العرب خرج بطليموس من الإسكندرية على رأس جيش جرار مركب من ٧٠٠٠٠ رجل من المشاة و٥٠٠٠ من الفرسان و٧٣ فيلا قاصدًا بيلوز وهناك وزع الميرة على عساكره ثم حط بهم على بعد ٥٠ استاده من رافيا ولم يمضِ قليل من الزمن إلا وأتى أنطيوخوس بخيله ورجله وعسكر قبال بطليموس على بعد ٥ استادات منه ولما استعرت نيران القتال انهزم أنطيوخوس وفر هاربا إلى أنطاكيا ومن هناك طلب الصلح من ملك مصر فأجاب بطليموس ملتمسه وأناط بوزيره سوزيب سن شروط هذا الصلح لمدة سنة واحدة ولما سر بطليموس من الاستيلاء على سوريا وفينيقيا مضى بها ثلاثة أشهر لينظم إدارتها ويرتب أحكامها ثم عاد إلى الإسكندرية وكان كثير اللهو واللعب منقطعًا إلى ذلك مشتغلا به عن تدبير

مملكته فسلم زمام الحكم إلى وزيره سوزيب وأخذ يعمل لوجهته غير ملتفت لما أصاب الرعية من سوء الحال والضنك والاضمحلال.

ومن أعماله السيئة قتله امرأته وأخيه بناء على إشارة وزيره الذي سعى في حقه لدى أخيه بأنه يتألب مع الجنود المجمكة للإضرار به وأمر بقتل أمه وقتل أيضا كليومين ملك اسبارطه الذي حظي بالإكرام والإجلال من أفرجيطه والسبب في قتله هو أنه بينما كان بطليموس في احتفال ديني للإله سيرابيس أراد كليومين أن ينير خواطر أهل الإسكندرية ضد الملك غير أنه لم يبلغ منتهى إربه بل صار القبض عليه هو وأحزابه ولم يجد معهم موردا سوى الموت ولم يكتف بطليموس بذلك بل بلغ به الحنق أن أمر بصلبه ويذبح أمه وامرأته وأولاده بالقرب منه.

ومات بطليموس غير مأسوف عليه من أحد وقد أخفى أصحابه في الملاهي وندماؤه في الشهوات خبر موته كي يتمكنوا من نهب خزائنه واقتسام ممالكه.

obeikandi.com

الملك بطليموس أبيفان أوفينفوس
(من ٢٠٥ إلى ١٨١)

انتهى الأمر إليه بعد موت أبيه وكان عمره لا يبلغ خمس سنين ونصف وفي مدة كفالته استرد انطيوخوس ملك الشام جميع الأقاليم التي افتتحها فيلوباطور عنوة ثم وهبها مهرا لابنته في يوم زفافها بابيفان سنة ١٩٣ وفي السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الأمير اختلت الأمور وارتبكت الأحوال وتفاقم الفساد بسبب سوء تصرف من بيدهم أزمة الأحكام وما طراء من المصائب والضنك على الأنام الذين رأوا من الإجحاف بحقوقهم ما أداهم إلى التعصب وخلع ربقة الطاعة من عنقهم ففشت الفتن وعمت المحن واضطربت الأحوال وساء المآل ولم يزل الأمر كذلك حتى استؤصلت شأفة هذا الاحتلال بموت الملك أبيفان مسمومًا في شتاء سنة ١٨١ ولما اعتلى هذا الملك أريكة الديار المصرية أصدر من مدينة منفيس المنشور الآتي إلى أفراد الأمة المصرية.

المنشور

في ١٠ أمشير من السنة التاسعة حضر إلى منفيس كافة رؤساء الدين وكل من صرح له بالدخول في المحل المقدس لتلبيس الآلهة وذلك للاحتفال بتتويج الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الأبيفاني وجلوسه على أريكة الملك وعندما تم الاجتماع وانتظم عقده صدر المنشور الآتي وهو:

من حيث إن الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الإبيفاني ...الخ قد بذل جهد المستطيع في جلب أنواع الخير إلى الهياكل وصرف المبالغ

الجسيمة لخدمتها ولم يدع وسيلة في عمل البر والإحسان إلا أجراها حتى صارت في أيامه الشعوب عمومًا ورعاياه خصوصًا متمتعين بالبركة والخصب والرفاء يمرحون في رغد العيش فقد اقتضت رأفته العظيمة ومراحمه التي لا تقع تحت حصر إلغاء بعض الضرائب وتخفيف البعض الآخر ...الخ وإطلاق سراح المسجونين مرتكبي الجرائم الكبيرة الذين حكم عليهم بالعقوبات الشاقة.

وقد صدر أمره أيضا بإبقاء المصاريف المقررة سنويا لخدمة الهياكل على ما هي عليه نقودًا كانت أو غلالا وكذلك ما يخص الآلهة في الكروم والبساتين وجميع ما لهم الحق فيه من أيام والده وإعفاء القبائل القسيسيه من السفر إلى الإسكندرية بطريق البحر.

وإن كل من نبذ أوامر الحكومة وشق عصا الطاعة وانتمى لأرباب التعصب والشقاق ومن كان معارضا لمنهج الحكومة فانقلب مذعنا لأوامرها منقادا إليها يرد إليه ما اغتصبته الحكومة من أراضيه وأملاكه ولا يُحرم منها قط بل يكون له الحق بالتمتع بها.

ثم إنه لكون دخوله مدينة منفيس إنما هو بصفة أخذ بثأر أبيه ومسئول من بعده على تاج المملكة فتطييبا لخاطره ودرءا للمفاسد قد عوقبت الرؤساء الذين كانوا في عهد أبيه يبثون الفتن والدسائس ويحرضون الناس على النزوع إلى الاضطراب وذلك بمقتضى القوانين وعلى حسب قدر جرائمهم.

وبما أنه قد أهدى الهدايا الفاخرة النفيسة للإله أبيس والإله منيفيس وسائر حيوانات مصر المقدسة حتى سرت الكهنة من هذه الأعمال الخيرية فقد أوجب هؤلاء الكهنة على نفوسهم زيادة التعظيم والتبجيل اللائقين بمقام الملك بطليموس الدائم الحياة محبوب فتاح الإله الأبيفاني وقد أمر أن يشيد تمثال بصورته في كل هيكل وبوضع بحيث يراه الزائرون وأن يجعل له تمثال مذهب ومحل للصلاة كذلك في أعظم الهياكل المقدسة وأن يصير الاحتفال كل سنة بعيد يمكث خمسة أيام مبدؤها أول شهر توت وأن يضع المنوطون بإجراء القرابين وإهراق النبيذ تيجانا على رؤوسهم ما دام هذا العيد قائما.

ومن الواجب نقش هذا المنشور على أعمدة من الأحجار الصلدة بالحروف المقدسة أو الحروف اليونانية وتحفظ هذه الأعمدة في هياكل الدرجة الأولى والثانية والثالثة الموجودة بالقطر. آه

وقد عثر بعض مهندسي الفرنساويين في سنة ١٧٩٨م على أحد هذه الأحجار بقرب مدينة رشيد فكان هذا الحجر سببا لكشف أسرار الكتابة الهيروغليفية.

obeikandl.com

بطليموس السادس فيلوميتوراي محب أمه

(من ١٨١ إلى ١٤٦)

كان حديث السن حين تولى الملك ومن ثم كانت أمه كيلوباترا تباشر أعمال المملكة بدلا عنه إلى أن يفع وترعرع وبلغ أشده ولما استلم زمام الأحكام ومضى من حكمه إحدى شرة سنة شبت نيران الحرب بين مصر وسوريا فانهزم المصريون فيها وكان محل الواقعة بين مدينة بيلوز وجبل كزيوس وانجلت عن أسر الملك بطليموس وفي أثناء أسره بايع أهل الإسكندرية أخاه أفرجيطه درءا للفتن التي تحدث غالبا عند خلو كرسي المملكة.

وبعد مضي أربع سنين انجلى ملك الشام عن مصر بعساكره وأطلق سراح الملك فيلوميتور فعاد إلى الإسكندرية وشارك أخاه في الحكم حولين كاملين ثم رضى أفرجيطه أن يكون مطلق التصرف في بلاد ليبيا وأن ينفرد أخوه بالحكم على مصر كما كان وذلك بسبب تداخل الرومانيين الذين منعوا السوريين من الإغارة على مصر مرة أخرى وبعد مدة ثار الخصام بين الأخوين واشتدت العداوة بينهما فأخذا يتحاربان مدة أربع سنين أعقبتها هدنة هجم الملك فيلوميتور في خلالها على سوريا واستولى عليها ثم مات وكانت مدة حكمه ٣٥ سنة.

بطليموس السابع أفرجيطه الثاني أو أوراخيطس
(من ١٤٦ إلى ١١٧)

حينما علم هذا الملك بموت أخيه انتهز الفرصة وبارح مدينة شيرين بجيش جرار قاصدًا مدينة إسكندرية حيث قتل ابن أخيه وتولى الملك بدلا عنه وكان هذا أول ما أتاه من المنكر واجترحه من المآثم والمظالم التي طالما وقعت منه وكان يفتخر بعملها ومن ذلك أنه بينما كانت أهالي مدينة منفيس محتفلة بعيد ميلاد بكرانجاله أمر بقتل جملة أشخاص من السيرينيين الذين رافقوه إلى مصر حيث بلغه أنهم كانوا يتحادثون فيما بينهم بشأن الملك ومحبوبة له تسمى إيرين وما زال سالكا برعاياه سبيل الجور والاعتساف مدة ١٥ سنة حتى هموا بالخروج عن الطاعة ومالوا إلى بث الثورة والشقاق فلما توسم منهم ذلك وعلم أنه ناتج مما يجريه من الظلم والجور فر هاربا من الإسكندرية وحشد جنودًا من الخارج بقصد تأييد ملكه فأظهر المصريون عند ذلك ما كمن في صدورهم من الحنق والحقد عليه فأخذوا يكسرون تماثيله وبدلوا اسمه بكاكرجيطه ومعناه المسيء الضار ليطابق الاسم المسمى.

ثم أن أفرجيطه عاد ثانيًا إلى الإسكندرية واستولى على زمام الملك بجيوشه المجمكه ومن هذا الحين تغيرت أطواره وتحسنت أخلاقه وسلك بالرعية مسلكا حسنا وأخذ يوطد الأمن في أنحاء ممالكه مثابرًا على الاشتغال بالعلوم والفنون حاثا على التمسك بأذيالها والتعلق بأسبابها وتوجيه الهمم إليها لما رآه من إهمال الجمهور لها وعدم إقباله عليها واستدعى أهل العلم والصنائع وقابلهم من لدن مكارمه بأحسن قول وأسبغ عليهم جزيل نعمائه وأخذ يغترف

من بحار علمهم ويرتشف من جداول معلوماتهم رحيق المعارف وسلسبيل الأدب والحكمة حتى ارتوت نفسه الأدبية من ذلك واستحق أن يُعد من أكابر عصره علما وفضلا.

obeikandl.com

بطليموس الثامن أولاطير
(من سنة ١١٧ إلى سنة ١٠٧)

كان هذا الملك في جزيرة قبرص حين مات أبوه واُستدعى للجلوس على أريكة الديار المصرية فلما علمت بذلك أمه كوكس وكانت يافعة مشهورة بالطمع وإلقاء الفتن والاضطراب انتهزت الفرصة فأشاعت أنه يريد قتلها وحرضت عليه أهل الإسكندرية وعرضت كثيرا من أتباعها وحاشيتها على العالم مصابين بجراحات عديدة طمعًا فيما هي مزمعة عليه من تخلص الملك لها ولما رأى ذلك أهل الإسكندرية أخذتهم الشفقة عليها فقاموا لتعضيدها على قدم واحد فاضطر الملك أن يعود إلى قبرص هربا مما عساه أن يقع راضيا من الغنيمة بالإياب.

obeikandl.com

بطليموس السابع إسكندر الأول

ثاني أولاد كيلوباترا

(من سنة ١٠٧ إلى سنة ٨٩)

كان بين هذا الملك وبين أمه شقاق دائم وذلك لسوء تدبيرها وفساد أخلاقها وشروعها عدة مرات في العبث بحقوق ابنها فلما تخيل منها ذلك وعلم ما يخالج صدرها لم يكن منه إلا أن قتلها وفر هاربا إلى جزيرة قوس تخلصا من انتقام الأمة منه فبويع أخوه سوطر الثاني.

obeikandl.com

سوطر الثاني
(من سنة ٨٩ إلى سنة ٨٢)

قد أوجد عود سوطر الثاني فرحا عظيما في قلوب أهل الإسكندرية دعاهم إلى تسميته بالملك المرغوب أما أهل طيبة فلم يذعنوا لطاعته وأبوا أن يكون ملكًا عليهم وجنحوا إلى الثورة والعصيان ودأبوا على ذلك حتى قاتلهم فعادوا إلى الهدوء والانقياد إلى أوامره بقوة جنوده وشوكة عساكره ونتج من هذه الحرب خسائر جسيمة وإضرارات مست مبانيها العظيمة.

obeikandl.com

بطليموس العاشر إسكندر الثاني
(من سنة ٨٢ إلى سنة ٧٣)

لم يترك هذا الملك مأثرة يذكر بها أو عملا تلهج به الألسنة أو تتحلى بتدوينه صحف التاريخ حيث أنه تولى في وقت كانت بضائع المصاعب فيه رائجة وأسواق الفتن فائقة إذ كانت البلاد من الداخل متفرقة الكلمة بسبب التحزبات والتعصبات لو كانت في الخارج ضعيفة القوة قريبة التلاشي والاضمحلال بسبب انحصارها بين أملاك الرومانيين والسوريين والليبيين والسيرينيين وقد طمعت خاصة الملك وأهل بطانته في الأهالي فسربوا إلى خزائنهم أموال الجباية وطالما بذل هذا الملك جهده فيما يستجلب به قلوب رعاياه فلم يتيسر له ذلك لما جبل عليه طبعه من الجفاء وقلبه من القسوة والخشونة ولم ينل من رعيته الأشدة الكراهة والبغضاء التي تأصلت في قلوبهم حتى نفرت منه عساكره وغضت عنه الطرف وهجرته إخوانه ولما أحس بذلك لم يسعه إلا أن فر قاصدًا مدينة صور حيث قضى باقي حياته بها موصيا بإعطاء مصر للرومانيين.

بطليموس أولطيس
(من سنة ٧٣ إلى سنة ٥٢)

لقب هذا الملك بهذا اللقب من باب التهكم والسخرية لشغفه بالمزمار وقد نسج على منوال سلفه واقتفى أثره في الانكباب على الشهوات والانغماس في المعاصي حتى أنه في مدة الإحدى والعشرين سنة التي حكم فيها مصر لم يذكره التاريخ بذكر يستحق عليه الثناء بل وصفه بأنه فتح على رعيته أبواب الظلم وأطلق الجور من عقاله عليها وغير ذلك كقتله بنيريس ابنته التي قامت مقامه مدة مغيبة برومه.

obeikandl.com

كيلوباترا
(من سنة ٥٢ إلى سنة ٣٠)

هي أول بنات بطليموس أولطيس جلست على أريكة الملك مع أخيها القاصر وفي السنة الرابعة من حكمهما هجم قيصر على بر مصر فخرج أخوها لقتاله وبينما ه يقاومه سقط في النيل فمات غريقًا في الذب عن وطنه وكانت مصر إذ ذاك محاطة بالخطوب والكروب من كل جانب إذ كان متربدات يحاول الاستيلاء على ميدنة بيلوز ممدودا بجيش سوري جرار من جهة وقيصر يهاجم الإسكندرية من جهة أخرى وقد دافع أهل الإسكندرية عن مدينتهم دفاع من باع حيا ووهب نفسه في خدمة الوطن.

أما كيلوباترا فعزلت عن التخت بسبب طمعها ثم توصلت إلى الدخول في إحدى قاعات السراي الملوكية ملفوفة في بساط محمول على ظهر أحد الخدم وبقيت هناك تنتظر قيصر .... ولما تم استيلاء هذا الإمبراطور على الإسكندرية أمر بحرق جملة أقسام من هذه المدينة انتقاما وتشفيا من أهلها الذين قاموا بحق الدفاع ولما رأى كيلوباترا افتتن بجمالها الرائق فحبها حبا مفرطا وأعادها إلى سرير الملك فحكمت مع أخ آخر لها تزوجت به ثم قتلته طمعا بعد أن حكم معها ثماني سنين (٤٢) ولما انفردت بالحكم في مصر أرسلت إلى أنطوان وأوكتاف أسطولا حربيا إعانة لهما على كاسيوس ورضي مجلس التريومفير أن يكون ابنها بطليموس قيصريون الذي رزقت به من حول قيصر ملكًا على بر مصر ثم لما شبت نيران الحرب بين أنطوان وأوكتاف المذكورين وانهزم أوكتاف في واقعة أكتيوم رأت كيلوباترا أن الانحياز إلى أقوى الطرفين أسلم

عاقبة لها والارتباط به أدعى لتأييد نفوذها وتوطيد مشربها وسعت أن يشملها ذلك الأقوى وهو انطوان بأنظاره ويمدها بحمايته فحبط سعيها وذهب أدراج الرياح إذ أنه لم يجبها على طلبها بل بادر بالاستيلاء على مدينة بيلوز ثم على الإسكندرية فخشيت كيلوباترا أنه متى وصل إليها يعاملها. معاملة الأرقاء فلم يكن منها إلى أن أطلقت على نفسها صلا فماتت في ١٥ أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد المسيحي وكان هذا اليوم هو آخر أيام العائلة الملوكية التي خلفت الإسكندر على ملك مصر.

***

obeikandl.com

المدة الرومانية

كانت نصرة أوكتاف حادثة شؤم على بلاد مصر إذ صارت هذه الأخيرة إقليما أي جزءا تابعا للملكة الرومانية يحكمها مدير ويتولاها نائب من قبل هذه المملكة وفي سنة ٢١٦ هجم الإمبراطور كراكلا على الإسكندرية بخيله ورجله فجلب لها الدمار وأوردها موارد الاندثار وفشت فيها المظالم في عهد كل من الإمبراطورين مكرين والبوجبال ومن بعدهما من الإمبراطرة ماعدا سبتيم سيفير حتى صارت مهدا لحوادث تقشعر منها الجلود ويلين رأفة بها الحجر الصلد.

وفي سنة ٢٦٩ استولت الملكة زنوبيا ملكة بلمير (ببلاد الشام) على الإسكندرية ثم نزعها منها أورليان في سنة ٢٩٨ وقد فوق هذا الإمبراطور من قوس القساوة سهم النهب والحرب وسفك الدماء إلى هذه المدينة حتى أصبحت خاوية على عروشها ثم عادت إلى الانتشار فيها الديانة المسيحية التي أدخلها بمصر القديس مرقص بعد أن عجزت إمبراطرة الرومان عن مقاومتها لتصدي إمبراطرة القسطنطينية لحمايتها والذود عنها من ابتداء الإمبراطور قسطنطين وقد اهتم آبا الكنيسة والبطارقة في إعادة مدرسة إسكندرية إلى ما كانت عليه من العمران والشهرة وعلو الشأن فوطدوا فيها القواعد الدينية والمبادئ الملية بعد أن اقتفوا آثار البدع ودحضوها.

وشيد بالإسكندرية وجهات الدلتا (المنوفية والغربية) صوامع عديدة للمتعبدين ولكن نظرا للحقد الكامن في قلوب النصارى للديانة الوثنية فقد

تعاقد هؤلاء النصارى على إزالة هذا الدين وكانت لذلك مدينة الإسكندرية منظر أهوال ومرسح شدائد لا يتسنى للقلم أن يقوم بوصفها.

ولما دخلت مصر بدعة أوطيشس وهي من أكبر البدع التي أقلقت بوجودها في هذا الحين الكنيسة الحديثة كانت الإسكندرية مركز اضطرابات عديدة ومحط قلاقل جمة أدت إلى انفصالها كلية عن روما والقسطنطينية.

obeikandl.com

المدة العربية أو الإسلامية

في سنة ٦٤١ من الميلاد الموافقة لسنة ٢٠ من الهجرة استولى الأمير عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على مدينة الإسكندرية بعد أن حاصرها ١٤ شهرا وفي مدة استيلاء العرب على هذه البلدة أخذت محاسنها وسكانها في النقصان والقلة واختفت منها الديانة المسيحية ولم تكن أوروبا في هذا العهد ذات تجارة بحرية خاصة بها بل كانت الإسكندرية مع ما ألم بها من الحوادث المفجعة مركز تجارة واسعة وثروة عظيمة وإن لم يبق لها من أهميتها القديمة سوى شيء يسير على أنها كادت أن تعود إلى حالتها الأصلية بالتفات خلفاء بغداد إليها خصوصًا المأمون فإنه شيد بها مباني عظيمة تضاهي في العظم والمتانة ما سبقها من مباني اليونانيين.

ولما استولى الخلفاء الفاطميون على مصر سنة ٩٦٩ ميلادية خولوا الانتشار للعلوم والفنون والتجارة بما منحوه لها من التعضيد والحماية غير أن حال الإسكندرية لم تتحسن عن ذي قبل لانتقال مركز الحكومة منها إلى مدينة القاهرة وبذلك انحطت مدينة البطالسة على رثتها وصارت من عداد مدن الرتبة الثانية من مدن مصر وما كادت عرى الصلات والارتباطات تتحكم بين أوروبا والمشرق حتى نشأت الحروب الدينية التي أدت إلى انقلاب العالم المتمدن وذلك في الحربين الصليبيتين الأولى والثانية (من سنة ١٠٩٦ إلى سنة ١١٤٨م) ولم تتغير حالة الإسكندرية عن أصلها لحد سنة ١١٧١م التي دخل فيها صلاح الدين الكردي مؤسس الدولة الأيوبية ببلاد مصر وأخذ الخلافة

من الفاطميين وطرد الصليبيين من الشام ومن هذا الوقت أخذت الحروب الصليبية تتابع بدون أن ينتصر الصليبيون في واحدة منها وفي سنة ١٢٠٢م استولى البنادقة سكان مدينة فينزيا على مدينة الإسكندرية فعاد إليها في أيامهم شيء من بهجتها الأصلية وذلك بعلاقاتها التجارية بالشرق الأقصى وبالبحر الأحمر وبحر الهند ثم دمرها ملك قبرص ولما رأى البنادقة أنهم مجبورون على التخلي عنها حرقوها من أولها إلى آخرها وأما في أيام المماليك فلم يعلم عنها شيء أصلا إذ أن تاريخ حكومتهم الاستبدادية قاصر على ذكر القاهرة وما جاورها من البلاد التي كانت ميدان تعصبهم ومرسح أعمالهم الفظيعة.

وفي سنة ١٣٦٧م الموافق لسنة ٧٦٧ من الهجرة أغار الإفرنج على الإسكندرية وما انتصبت هذه المدينة على قدميها إلا بصلاتها التجارية التي لا بد منها مع البلاد الأخرى وأهمية شهرتها السابقة ولما استولى السلطان سليم الأول على مصر سنة ١٥١٧م لم تكن الإسكندرية زاهرة كما في الزمن السابق غير أنه كان يوجد بها بعض حركة تجارية ناشئة عن تردد التجار البنادقة وملاحي البحر الأبيض المتوسط عليها وقد أخذت تحت حكم الترك تسير سيراً حثيثاً إلى طريق الاندثار وسبيل الدمار حتى انمحى وتلاشى في زمن يسير ما أسسته العرب وشيدته من المباني الفخيمة وقد جعلها المماليك الذين كانوا تارة يخضعون إلى السلطان وطوراً يعصونه في الحالة السيئة التي رأتها بها الفرنساويون في آخر القرن المنصرم وفي ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ الموافق ١٤ مسيدور (وهو الشهر الثاني من السنة الجمهورية وابتداؤه ٢٠ يونيو وانتهاؤه ١٩ يوليه) أي السنة السادسة من تشكيل الجمهورية الفرنساوية وسنة ١٢١٣ من الهجرة النبوية استولى الجنرال بونابرته على مدينة الإسكندرية بفرقة من

العساكر وكان لا يبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ نفس وقال بعض المؤرخين في هذا الصدد ما يأتي «يصعب على الخلف أن يصدق أن ثلاثة آلاف نفر من الفرنساويين استولوا في أقل من ثلاثة ساعات على مدينة الإسكندرية التي بالنسبة لمنعتها وحصانتها كانت تعتبرها الدولة العلية مفتاح ممالكها الأفريقية وقد وقعت هذه المدينة في قبضة الجنرال بونابرته مثل ما وقعت في قبضته من قبل ذلك بمدة يسيرة جزيرة مالطة التي كانت مشهورة أيضا بأنها بعيدة المنال متينة الحصون ولما تم استيلاء هذا الفاتح على تلك النقطة الحربية المهمة أخذ في تتميم فتوحاته متقدما إلى غيرها من المدن والبلدان بعد أن سلمها لجملة من مهندسي الجيش ليرسموا مواقعها فكأن بونابرته إسكندر آخر أتى بعد واحد وعشرين قرنا ليعيد الإسكندرية إلى ما كانت عليه من العز والبهجة والبهاء».

وفي عهد ساكن الجنان المرحوم محمد علي باشا ومن خلفه على كرسي الديار المصرية سلكت مصر سبل التقدم والنجاح وتخلصت مدينة الإسكندرية من حبائل عاديات الدهر ونكباته وصارت تمتد شيئا فشيئا إلى أن كادت تبلغ الحدود التي حدها لها مؤسسها الشهير وبعد أن كانت ميناها غير كافية لمرسى المراكب التي كانت تحمل إليها جميع المحصولات من الأنحاء الشاسعة أصبحت في سعة ورحب حتى صارت تعتبر الميناء الأولى في الشرق بعد القسطنطينية.

وقد زالت عنها هذه الخيرات المتدفقة والنعم الجزيلة بسبب عصيان الجهادية في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ ميلادية فتخربت من جراء مذبحة ١١ يونيه سنة ١٨٨٢م وبعد هذا التاريخ بشهر على التمام رمت الإنكليز قنابلها عليها

ريثما ابتداء العصاة في إحراقها وها هي اليوم قد لبست من الجدة والبهجة ثوبًا جديدًا ذا رونقٍ عجيب فعسى أن لا تبلِه حوادث الدهر وتقلباته.

obeikandl.com

إسكندرية القديمة

قال استرالون: كانت مدينة الإسكندرية محصورة بين البحر الملح وبحيرة مريوط بحيث لا يوصل إليها برا إلا من جهتين وكان بإزائها جزيرة فاروس التي أحدثت بوضعها مع الساحل ميناء آمنة من رياح الشمال الغربي وصار إيصال هذه الجزيرة بالقارة بواسطة جسر يسمى هبستدبون -ومعناه أن طول هذا الجسر سبعة استادات أي ٨٧٥ خطوة- وذلك للانتفاع بهذه المزية العظمى وكان طول هذا الجسر ينتهي من جهة المدينة بمكان يسمى «المحل الأكبر» عند سفح التل المسمى في هذه الأيام بكوم الناضورة أو كوم نابوليون وكان بنهايتي هذا الجسر قنطرتان لكل منهما قلعة حصينة بجانبها وكانت كل قنطرة موضوعة فوق أعمدة عظيمة ذات ارتفاع يمكن للمراكب معه المرور من تحته وانقسمت المينا بهذا الجسر إلى قسمين شرقي ويسمى بالمينا الكبرى وغربي ويسمى بميناء أونوستوس ومعناه العود بالسلامة وكان في الشمال الشرقي من جزيرة فاروس شعب صغير معرض لصدمات الأمواج فصار وصله بالجزيرة بواسطة جسر ضيق وفي آخر هذا الشعب شيدت المنارة المعدودة من عجائب الدنيا السبع وكانت بمدخل الميناء من الجهة اليسرى قصر عظيم متين البنيان مشيد على الرأس المسماة قديما برأس لوشياس (طابية السلسلة الآن) وكان في نهاية هذه الرأس صخور طبيعية تسمى أكرولوشياس ومن مزاياها الطبيعية المفيدة تقليل قوة الأمواج عند مصادمتها لها وكان بقرب هذه الصخور حوض مغلق معد لمرسى المراكر البحرية الملوكية.

وقال استرابون أنه كان يوجد حوض آخر تجاه الجزيرة الصغيرة المسماة انتيرودوس وكان يرى على الجزء الشرقي من المينا حارة السرايات الموجودة على شاطئ البحر وكان بقربها التياترو والبوزيدوم وهيكل نبتون الذي كان موضوعا على لسان من الأرض داخل في المينا وكذلك تيمونوم مارك أنطوان الذي شيده هذا الإمبراطور على طرف الصخور الموجودة قبل البوزيدوم.

ثم القيصريوم أو السبستيوم الذي كان يرى عند مدخله مسلتان قائمتان والامبوريوم وكان موجودا على بعد ٣٠٠ متر من القيصريوم ومعنى الامبوريوم البورصة أو السوق وكان يلى الامبوريوم ما كانوا يسمونه ابوستاز أي مخازن البضائع ومستودعاتها وكانت هذه المخازن مشيدة على طول الرصيف وأما ما كان يلي ذلك لغاية الهبتستديون فكانت فيه معامل البحرية وترسخاناتها وكان ورود المراكب على مرفأ أونوستوس نادرا جدا رغما عن كونه أوسع من الآخر بكثير والسبب في ذلك أنه كان يوجد حوض يسمى الكيبوتوس متصل بمينا أونوستوس بممر ضيق وكان ماؤه متصلا بماء الترعة التي كانت تمر من الجنوب الغربي من الإسكندرية وكانت جميع محصولات مصر المخصصة للتصدير إلى الخارج تشحن من هذا الحوض ثم تمر منه إلى المينا الكبرى ومعنى كيبوتوس المتقدم الذكر الصندوق.

وكان مما يلي الترعة بقليل تحت أسوار المدينة قرية بكروبويس أو مدينة الأموات وقصر سرزونيز المشيد على نهاية رأس مريوط التي تسد الموردة من الجنوب الغربي ويعلم من جميع ما تقدم أن الإسكندرية كانت موقعًا حربيا عظيما ومركزا تجاريا مهما.

وأما شوارعها فكانت منتظمة بحيث تسمح للرياح الشمالية المختصة بالبحر الأبيض المتوسط أن تدور في داخلها وكانت هذه الشوارع غاية في الانتظام حتى أن الواقف إذا سرح نظره من أولها لا يحجبه شيء عن تلاقي الأفق من آخرها وكان يمكن للعربات أن تطوف فيها بالحرية التامة وكانت الصهاريج المجعولة لشرب العامة والتي داخل المنازل تدفق منها المياه العذبة النقية على الدوام وكان بها طريقان يتقاطعان في زوايا قائمة عرض كل منها بلتراي ماية قدم تقريبا وأحدهما كان أخذا بطول المدينة والثاني بعرضها فالأول وهو أكبرهما كان ممتدًا بين بابي كانوب ونكروبوليس وكان يبلغ طوله ٣٠ استاده أي ٣٧٥٠ قدم والثاني من المينا الكبرى إلى بحيرة مريوط وطوله يبلغ سبع أو ثمان استادات وكان في ملتقى هذين الطريقين أي مركز البلد أكبر محلاتها العمومية وبه تتصل أقسام البلد الأربعة وأكبر هذه الأقسام قسم السراية (جهة المسلة الآن) ثم قسم السربيوم أو قسم راقوطيس أو رقوده (جهة عامود السواري).

وكان قسم السرايات أو البروشيون شاغلا للفضاء الممتد من المينا الكبرى والساحل إلى باب كانوب وكانت فيه القصور والسرايات ومينا الملوك ومينا انترودوس والتياترو والبوزيدوم والتيمونوم والقيصريوم والمتحف الجمناز وهو عبارة عن بناء مشيد الأركان متين الجدران ذي أبواب شاهقة عالية مزين بالنقوش والرسوم التي تخلب العقول بألوانها الباهرة وكان طوله أكثر من استاده أي ١٢٥ خطوة من منذ ما وقعت الإسكندرية في قبضة جول قيصر صار تحصين قسم البروشيون وفصله عن باقي المدينة وحوصر هذا القسم سنة

٢٧٠ من الميلاد في آخر أيام الملك كلود الثاني وتخرب في أواخر حكم أورليان سنة ٢٧٥.

وأما قسم راقوطيس فقد كان ممتدا على ساحل مينا أونوستوس وكان فيه هيكل سيرابيس الذي شيده ووسعه بطليموس بن لاغوس مرة أخرى وهو على جزء مرتفع من الأرض كائن بقرب المدينة في النهاية الجنوبية منها.

وما زالت ملوك البطالسة تتنافس في تحسين الإسكندرية فكانوا يحضرون لها مواد البنا من جميع أنحاء مصر خصوصًا من آثارها العظيمة ومبانيها القديمة حتى صارت الإسكندرية مشيدة بالمواد البنائية المصرية وصار فيها كثير من المحلات العمومية الواسعة الجوانب والقصور الشامخة والهياكل الباذخة التي بها أنواع الرخام والخلاصة فكانت هذه المدينة ذات منظر يسر الناظرين.

هذا هو بالنسبة للآثار المادية وأما الآثار الأدبية والعلمية فقد أنشأ فيها بطليموس سوطر مكتبة عظيمة جمع فيها أنواع كتب العلوم والفنون حتى بلغ عدد مجلداتها نيف وربعماية ألف وأسس محلا علميا سماه بمدرسة الإسكندرية وكان يتخرج منه أعظم البلغاء والفلاسفة الذين نبغوا في جميع العلوم وكان بطليموس نفسه يحضر دروس الهندسة على إقليدس معيرا إليه أذنا واعية وعينا صاغية منبها صامتا كأحد التلامذة.

وقال ديودور إن عدد سكان الإسكندرية كان كثيرا جدًا بالنسبة لاتساعها إذ كان يبلغ أيام أغسطس نيف وثلثماية ألف نسمة من الأحرار وضعفها من العبيد وقال العلامة كلفتون كنت أتعجب حين أنظر في سكان الإسكندرية

كيف شغلوا جميع مساكنها مع عظيم اتساعها وكيف وسعتهم هي مع كثرتهم ووفرتهم إذ كانت الطرق دائما عاصة بالمارة والعامة في ازدحام زائد على اختلاف حوائجهم وكانت حركتها التجارية مع سائر البلاد في نشاط دايم بواسطة البحيرات والترع فترعة كانوب كان يمكن للسفن أن تسير فيها من النيل إلى الإسكندرية وهي التي كانت تمد الصهاريج الموجودة بالمدينة بمياهها الروية مع ما كان ينتفع بها في توصيل التجارة والبضائع إلى الإسكندرية وبسببها أخصبت الأرض التي على شاطئيها المحفوفين بغيطان الكروم والبلح وغيرهما من الأثمار وكان عليها أيضا المنازل الخلوية والبساتين النضرة التي تذهب بمشاهدة رونقها الحسن جميع الهم والحزن وتؤذن بانشراح الصدور وإزاحة الكروب وكان عند طرفي المدينة المتقابلين قرى صغيرة زاد اتساعها زيادة عظيمة فالقرية التي كانت في الجنوب الغربي منها على ساحل البحر تسمى نكروبوليس والتي كانت موجودة في الشمال الشرقي منها خارج باب كانوب فيما يلي الأيبودروم تسمى أيلوزيس ونيكوبوليس وسمت هذه الأخيرة بهذا الاسم تذكارًا لانتصار أغسطس على أنطوان.

هذا وكانت الإسكندرية في الزمن السابق مركز الدنيا المعلومة إذ ذاك ولهذا كانت تجارتها مع الهند والقرطاجنيين والرومان في حركة مستمرة وبقيت محصورة فيها مدة ثمانية عشر قرنا إلى أن فتح البرتغاليون طريق آسيا من رأس الرجاء الصالح.

هذه كانت حالة الإسكندرية اليونانية فإنها في أيام البطالسة الأول بلغت أوج الرفعة وارتقت أعلى درجات السعادة فما كان أحسنها من بلد تشبه

الروضة الغناء والغادة الحسناء باسمة الثغر تبش في وجه الوافدين عليها طلق محياها ولا عيب فيها غير أنها تودع قلب من زارها حبا شديدا.

وآخر من حكم على هذه المدينة من عائلة اللاغيين كيلوباترا الموصوفة بفرط الجمال والحسن وهي التي قيل فيها أنها شاركت إيزيس معبود مصر في أوصافه وكانت تميل كثيرا إلى الشهوات والحب حتى فتنت جميع الناس بحبها وألقتهم في شرك هواها.

***

obeikandl.com

في الكلام على آثار الإسكندرية

(جزيرة فاروس القديمة)

إن جزيرة فاروس التي تحد ميناء أونوستوس (المينا الغربية) من الجهة الشمالية الغربية تحتوي على أطلال لا يخلو الإتيان بذكرها من بعض الفوائد فنقول إن في هذه الجريرة أطلال صهاريج قديمة محفورة في الصخر ومطلية بالأسمنت وفي غربها بقايا مغارات مطلية بطلاء يرى عليه حتى الآن رسوم ونقوش قديمة وتنقسم هذه المغارة إلى جملة أقسام تتصل ببعضها وهي تشبه المغارات الموجودة على ساحل نكروبوليس وقد غطى البحر في هذه الأيام بقايا الأبنية التي حول جزيرة فاروس وهذا مما يثبت أنها كانت قبل أوسع من الآن بكثير وقال بعض المؤرخين «أنه كان يوجد بجزيرة فاروس بيوت مصرية وقرية كبيرة تعود أهلها اغتيال السفن التي تضل عن الطريق لعدم مواتاة الريح لها أو لسوء تدبير ربانها» وقال هرتوس بنسا «إن مدينة فاروس كانت محصنة بجملة بروج شامخة ولشدة تقاربها من بعضها كانت تشبه السور العظيم» وكانت الصخرة الموجودة على بعد خمسة وعشرين أو ثلاثين خطوة من نهاية رأس التين مسكنا لجملة من أهل الإسكندرية ومما يؤكد ذلك أنه يرى بقرب الرصيف الجديد المانع للأمواج جملة أعمدة مكسورة وأحجار مطلية بطلائها

الأصلي حتى الآن وقد كادت تتحول هذه الصخرة إلى رمل لشدة تأثير المياه فيها.

هذا وجزيرة فاروس القديمة متصلة الآن بالبر بواسطة اللسان القائم مقام الهبتستديون المتقدم الذكر وعليه توجد مساكن الوطنيين الآن وطول الجزيرة من نهايتها الشرقية إلى فنار رأس التين الجديد ٢٦٠٠ متر ومتوسط عرضها يختلف من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ متر ويظهر أن الجزيرة الصغيرة المشيد عليها الآن حصن آطه لم تكن قبل إلا بمنزلة جون صغير جدا بجزيرة فاروس.

obeikandl.com

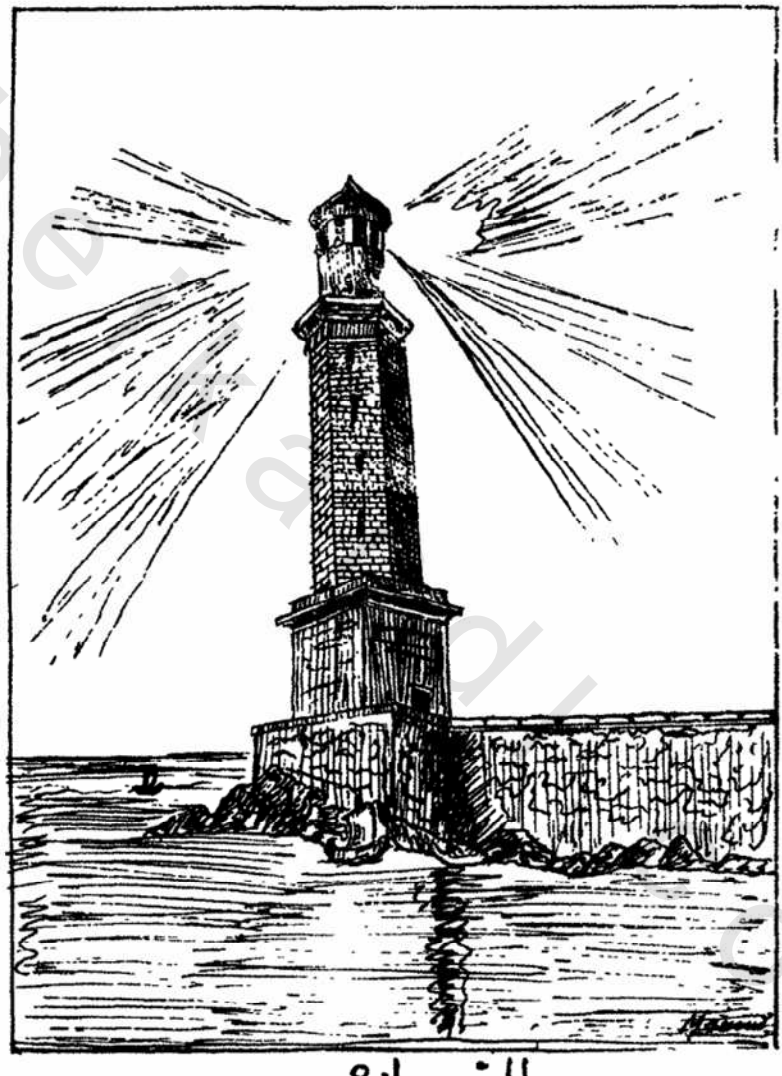

المنارة

obeikandl.com

المنارة القديمة أو منارة البطالسة

في النهاية الشرقية من جزيرة فاروس صخرة عرضها ٢٠٠ متر وطولها ٢٣٠ متر كانت المنارة القديمة مشيدة عليها وفي موضعها أسست العرب طابية قائد باي ويمكن اعتبار هذه الصخرة كرأس كانت منفصلة من قديم الزمان عن الجزيرة الحالية ثم اتصلت بها بواسطة جسر طويل وكان الابتداء في تشييد ذلك الأثر المنيف في عهد بطليموس سوطر وانتهاوءه في عهد ابنه فيلادلف بمعرفة وإدارة المهندس الشهير سوسترات دوسنيد بن دكسيفان.

وكانت المنارة مركبة من جملة طبقات آخذة في الصغر بالتدريج كلما بعدت عن الأرض وكان حول هذه الطبقات شرافات محمولة على أعمدة متينة كان إذا وقف فيها الإنسان رأي جميع أحياء مدينة الإسكندرية وضواحيها إلى مسافات شاسعة.

وقد أكد بعض المؤلفين أن المنارة كانت ثلاثية الشكل وأن الجزء الأسفل منها كان عظيم الاتساع بحيث بلغ عرضه نصف ارتفاع المنارة الكلي وكان يرى مكتوبا على أحد جهاتها ما نصه «من سوسترات دوسنيد بن دكسيفان إلى الآلهة المساعدين للملاحين» وكانت النار تضرم على قمة هذا البناء الشامخ الذي كان يبلغ ارتفاعه أربعماية ذراع فتنبعث أشعتها الضوئية إلى مسافة ٣٠٠ استاده أي ٣٧٥٠٠ خطوة وأما في النهار فكان الدخان يقوم مقام النار في الليل وقال بعض المؤرخين إنه كان يوجد باعلا المنارة مرآة مصقولة من الصلب

تنعكس فيها صور المراكب بمجرد ظهورها على الأفق وأكد أبو الفدا وجود هذه المرآة في سنة ٩٢ من الهجرة الموافقة لسنة ٧١٢ من الميلاد وقد علم مما سبق أن جزيرة فاروس كانت تسمى بهذا الاسم قبل أن يوحد بالإسكندرية مصباح يستضيء به الملاحون في الغدو والرواح فالمنارة أي (الفنار) سميت باسم المكان الذي شيدت فيه وقد أطلق هذا الاسم على جميع المباني التي من هذا النوع واتخذت منارة الإسكندرية مثالا يحذى عليه في ما شيد بعد من المنارات وقال بلين إنه رأى بعينه منارات كابريه وبوزول ورافين وجملة منارات أخرى على بوسفور تراسه وقال سويتون إن الإمبراطور كلود شيد منارة أوستيا على مثال منارة الإسكندرية ومع ذلك فإن وصف كلتا المنارتين مجهول لا يعرف على أنه وحد على بعض النقود صورة منارة الإسكندرية ولكن أجزاء هذه الصورة كانت غير واضحة لقدم عهدها وقد شبه المنارة هيرود يانوس المؤرخ اليوناني الذي كان عائشا في القرنين الثاني والثالث من الميلاد فقال «أنها كالقبور المصنوعة من أبنية منشورية الشكل موضوعة فوق بعضها».

هذا هو ملخص ما يوثق به من تاريخ المنارة وقد رأينا من المستحسن أن نسرد ما ذكره المؤرخون في هذا الموضوع تتميما للفائدة فنقول:

قال ياقوت يصف المنارة «وأما المنارة فقد رووا لها أخبارا هائلة وأدعوا لها دعاوى عن الصدق عادله وعن الحق مائله فهي من باب حدث عن البحر ولا حرج وأكثرها باطل وتهاويل لا يقبلها إلا الجاهل ..... وقد شاهدتها في جماعة من العلماء وعاد كل منا متعجبا منا متعجبا من تخرص الرواة وذلك إنما هي بنية مربعة شبيهة بالحصن والصومعة مثل سائر الأبنية ولقد رأيت ركنا من أركانها

وقد تهدم فدعمه الصالح رزبك أو غيره من وزراء المصريين واستجده فكان أحكم وأتقن وأحسن من الذي قبله وهو ظاهر فيه كالشامة لأن حجارة هذا المستجد أحكم وأعلم من القديم وأحسن وصفاً ورصفاً وأما صفتها التي شاهدتها فأنها حصن عال على من جبل مشرف في البحر في طرف جزيرة بارزة في مينا إسكندرية بينها وبين البر نحو شوط فرس وليس إليها طريق إلا في ماء البحر المالح وبلغني أنه يحاض من أحد جهاته الماء إليها والمنارة مربعة البناء ولها درجة واسعة يمكن الفارس أن يصعدها بفرسه وقد سقفت الدرج بحجارة طوال مُركبة على الحائطين المكتنفى الدرجة فيرتقى إلى طبقة عالية يشرف منها على البحر بشرفات محيطة بموضع آخر كأنه حصن آخر مربع يرتقي فيه بدرج أخرى إلى موضع آخر يشرف منه على السطح الأول بشرفات آخر وفي هذا الموضع قبة كأنها قبة الديديان وليس فيه كما يقال غرف كثيرة ومساكن متسعة يقتل فيها الجاهل بها بل الدرجة مستديرة بشيء كالبئر فارغ زعموا أنه مهلك وأنه إلى ألقى فيه الشيء لا يعرف قراره ولم اختبره» وذكر ابن الأثير أن رأس المنارة سقط سنة ١٨٠ هجرية بزلزلة عظيمة حدثت بمصر.

وقال المقريزي في خططه إن منارة الإسكندرية أحد بنيان العالم العجيب بناها بعض البطالسة من ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيلش لما كان بينهم وبين ملوك روما من الحروب في البر والبحر فجعلوا هذه المنارة مرقبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار الشفافة ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من روما على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها فيستعدون لها قبل ورودها وطول المنارة في هذا الوقت تقريبا ٢٣٠ ذراعا بعد أن كان طولها ٤٠٠ ذراع فتهدمت من ترادف الأمطار والزلازل وبناؤها على ثلاثة أشكال فقريب

من النصف وأكثر من الثلث بناؤه مربع الشكل بأحجار بيض وذلك نحو ١٠٠ ذراع وعشرة أذرع تقريبا ثم بعد ذلك يكون مثمن الشكل مبنيا بالحجر والجص وذلك نيف وستين ذراعا وحولها فضاء يدور فيه الإنسان وأعلاها مدوروررم أحمد بن طولون شيئا منها وجعل في أعلاها قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها وهي مبسوطة منحرفة بغير درج وفي الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يوناني طول كل حرف ذراع في عرض شبر ومقدارها على جهة الأرض نحو مائة ذراع وبلغ ماء البحر أصلها وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلي البحر فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وفي أيام الظاهر بيبرس تداعى أحد أركان المنارة وسقط فأمر ببناء ما تهدم منها في سنة ٦٧٣ وبني مكان القبة مسجدا وهدم في ذي الحجة سنة ٧٠٢ من زلزلة ثم بني في سنة ٧٠٣ وهو باق إلى يومنا هذا وبينها وبين مدينة إسكندرية في هذا الوقت نحو ميل وهي على طرف لسان من الأرض قد ركبه البحر وهي مبنية على فم مينا إسكندرية وليست المينا القديمة لأنها في المدينة العتيقة ولا ترمو بها المراكب لبعدها عن العمران وفي سنة ٣٤٤ تهدم من المنارة نحو ٣٠ ذراعا من أعلاها بالزلزلة التي كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ما وردت به الأخبار المتواترة بفسطاط مصر وكان لهذه المنارة مجمع في يوم خميس العدس يخرج فيه أهل إسكندرية إلى المنارة من مساكنهم ولابد أن يكون فيها عدس فيفتح باب المنارة وتدخله الناس فمنهم نم يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ولا يزالون كذلك إلى نصف النهار ثم يصرفون ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو».

obeikandl.com

وقال بعضهم أنه قاسها فوجد أن ارتفاع الطبقة الأولى ١٢١ ذراعا والثانية ٨١ ونصف والثالثة ٣١ ونصف وقاس بن جبير أحد أضلاعها في سنة ٥٧٨ هجرية الموافقة لسنة ١١٨٢ ميلادية فوجده يبلغ ٥٠ ذراعا وقال الجوابة الرحالة ابن بطوطة «قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما وصفته أنه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه فإذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعماية فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله فعاقه الموت عن إتمامه».

وأقدم ما قيل في المنارة قصيدة شعر به منسوبة للشاعر اليوناني بوزيديب الذي كان مرافقا لكاليماك في بلاط الملك بطليموس فيلادلف وقد وجدت هذه القصيدة على ورقة من البردي في سيرابيوم مفيس مع أربعة وأربعين بيتا من رواية محزنة مفقود باقيها وعدة أبيات أُخر وحساب ما صرفته الخزينة العمومية من العيش والقمح ثم قصيدة أخرى يذكر فيها اسم ارسينوه امرأة بطليموس فيلادلف.

وموءدي القصيدة المختصة بمنار الإسكندرية هو «قد شيد سوسترات دوسيد بن دكسينان في جريد أروس هذه المنارة التي لا تنام عينها حبا في سلامة اليونان ولا يوجد بمصر قاطبة جزيرة أكثر ارتفاعا من هذه ومن مراياها العظمى أنها تكون مأمنا للمراكب من الأخطار ولو بلغ البحر من الهيجان أشده وقد شيدت فيها المنارة داهمة في الهواء أعلى الصخور المنيعة والشعوب العزيزة المنال لتكون مرشدا للفلاحين ودليلا لهم في الليل والنهار وإذا رأوا استعار النار في أعلاها وكانت تحملهم الأمواج على متونها وتقذفهم من مكان إلى مكان جعلوا مقصدهم بلا ريب جهة (تروكير) فإذا نهجوا هذا المنهاج وسلكوا هذا السبيل لا يعدمون منك أيها الإله المنجي المساعدة والسلامة».

وقال هوميرس الشاعر اليوناني القديم الذي كان عائشا في سنة ٩٠ قبل الميلاد أي قبل تشييد المنارة بأزمان مديدة في الغناء الرابع من قصيدة الأوديسة ما يأتي «وفي وسط لجج الأمواج قبل بلاد أحبتوس جزيرة تسمى فاروس على بعد منها يساوي ما تقطعه المركب عادة في نهار واحد إذا كان الريح معتدلا وموافقا وهناك توجد موردة مأمونة منها يأخذ البحريون ما يلزمهم من الماء ثم يسيرون في سبيلهم إلى حيث يشاؤون».

ومن هنا يستنتج أن جزيرة فاروس كانت في أيام هذا الشاعر اليوناني الطائر الصيت بعيدة جدا عن الساحل والظاهر أن طمي النيل قرب الساحل منها إلى الحد الذي نراه عليه الآن ونحن نستند في قولنا هذا على ما قاله المؤرخ بلين الذي كان عائشا في القرن الأول من الميلاد وهو «أن الجزء الأعظم من بلاد مصر إنما هو متولد من طمي النيل في المدة التي تلت عصر هومبرس الشاعر».

وقال استرابون «أن الرأس الموجودة شرقي جزيرة فاروس كانت عبارة عن صخرة متسعة محاطة بالمياه من جميع جهاتها كباقي الصخور المجاورة لها وفيها منارة عظيمة مبنية بالرخام الأبيض وتسمى باسم الجزيرة والذي شيدها هو سوسترات دوسيد نديم الملك وذلك لسلامة الملاحين وكانوا يضعون في أعلاها إشارة لقصدها الملاحون من أعالي البحر كيلا يضلوا عن مدخل المينا وسبب ذلك أن هذه الجهات منخفضة جدا ومحتوية على شعوب صلدة ورمال مجتمعة فكان المرور منها لا يخلو من الخطر وكانت الجهة الغربية بهذه الصفة إلا أنها أقل صعوبة من الأولى وهي توصل إلى مينا أخرى تسمى أونوستوس يوجد بداخلها مينا أخرى صناعية هي والسابقة مفصولتان عن المينا الكبرى التي يوجد في مدخلها المنار بحسر يسمى هتستديون».

وقال قيصر في شرحه «إن مدخل المينا ضيق جدا حتى أن المراكب لا يمكنها العبور منه ولما خشي قيصر أن العدو يستولى على المنارة احتلها بعساكره ورتب عليها الحرس اللازم أمكنه الحصول على الميرة من البر والبحر ولذلك أرسل إلى أكثر الممالك المجاورة لحصول على مطلوبه من ذلك».

وقال أيضا «إن فاروس عبارة عن برج مرتفع عجيب الهدام مشيد على جزيرة سمي هو باسمها».

وقال المؤرخ يوسيفوس (٣٧ - ٩٥) في تاريخه حروب الإسرائيليين والرومانيين عند كلامه على منارة فزائيل المشيدة بأورشليم «وشكلها يشبه شكل منارة الإسكندرية ففي أعلاها نار مشتعلة بمثابة مصباح الملاحين يمنعهم من الاتجاه نحو الصخور التي تسبب غرقهم ولكن أطوال منارة

الإسكندرية أكبر من أطوال الأخرى» وقال أيضا «ويصعب على المراكب الدخول من بوغاز الإسكندرية حتى في وقت سكون البحر وهدوه والسبب في ذلك هو أن البوغاز المذكور ضيق جدا ومملوء بالصخور الكثيرة التي ربما أحادت تلك المراكب عن الطريق القويم ويوجد في الجهة اليسرى جسر عظيم أشبه شيء بذراع ضم إليه جميع المينا وكانت تضمها أيضًا من الجهة اليمنى جزيرة فاروس التي في نهايتها درج مرتفع تضرم في أعلاه نار تصل أشعتها إلى بعد ٣٠٠ استاده فتبين للملاحين الطريق الواجب عليهم أتباعه».

وزعم بوسيفوس المذكور أن ارتفاع المنارة ٩٠ ذراعا أي ٥٦ متراً فقط وأن ارتفاع التل الذي يحملها ٣٠ ذراعاً وهو زعم فاسد وقول باطل لأن ارتفاع المنارة يكون في هذه الحالة أقل من جميع الارتفاعات التي أوردناها عن الموءرخين الذين سلف ذكرهم وادعى أبيفان الإسكولستيكي الكاتب المنشى الذي كان عائشا في القرن السادس من الميلاد أن ارتفاعها يبلغ ٣٠٠ أورجيا (مقياس يوناني) وبما أن طول الأورجيا هو متر واحد و٨٥ سنتي فبناء عليه يكون ارتفاع المنارة هو ٥٥٠ مترا وهو ادعاء باطل وقول خيال لا أساس له من الصحة لأن استحالته ظاهرة من فرط عِظم هذا الارتفاع ولو فرضنا أن المؤلف أراد أن يقول امبان وهو مقياس يوناني أيضا بدلا عن لفظة أورجيا لكان ارتفاع المنارة ٧٠ مترا وهو قليل أيضا.

هذا هو ملخص ما أورده ثناة المؤرخين من الآراء والأقوال وهو وإن لم ينطبق على أصل المنارة الحقيقي تمام الانطباق إلا إن أغلبه قريب منه وما سوى

ذلك فهو محض ترهات وأباطيل وخرافات لا يجمل باللبيب الأريب أن يعيز سمعه إليها.

وقال المؤرخ شامبوليون في وصفها «أنها عبارة عن صرح شامخ مبني في جزيرة صغيرة وصلها بطليموس بالشاطئ بواسطة جسر طويل وكانت المنارة من أنفع المباني التي شيدت في زمن بطليموس سوطر لأنها سهلت على الملاحين الملاحة بالجهات المجاورة للإسكندرية وكانت مركبة من عدة طبقات تأخذ في الصغر كلما بعدت عن وجه الأرض وقيل أن ارتفاعها كان يبلغ ١٠٠٠ ذراع وأنه كان بداخلها درج يوصل إلى جميع غرفها وكان يمكن للحيوانات أن تصعد إلى أعلاها بواسطة هذا الدرج وكان يوجد منها في القرن الثاني عشر من الميلاد المسيحي ١٥٠ ذراعا وتوجد صورة المنارة علي جملة وسامات» وقال بلين أن تكاليفها بلغت ٨٠٠ تلان أي ١٦٠٠٠٠ جنيه.

ومن الصعب الآن تتبع بقايا هذا الأثر الحميد وغاية ما نعلمه أنه كان موجودا أيضا في نهاية القرن الثالث عشر من الميلاد إلا أنه اندثر ولم يبق منه أثر في القرن الخامس عشر وفي أيامنا هذه يرى عند هدو البحر بقرب سواحل مدخل المينا الكبرى بعض كتل من الرخام والجرانيت مغطاة بالماء ومن المرجح أن هذه الأحجار هي من بقايا المنارة القديمة ويوجد في تلك النواحي أيضا قطع متكسرة من الجرانيت من اختبرها ثبت لديه أنها تدل على بعض مبان قديمة وقد صارت هذه البقايا بسبب طول مكثها في الماء يابسة جدًا تتلقى مصادمة الأمواج عن حصن قائد باي.

ولا بدع أن اندهش المتفرج من هذه الجزيرة التي كان موجودا بها إحدى عجائب الدنيا السبع ومع ذلك فإن هذا الأثر الفخيم الذي تخلد اسمه مدى الدهور والأيام ما أمكنه التخلص من عوادي الزمن بل صارت السواحل قبرا له لن ينشر منه إلى الأبد وعليه فقد اختفت المنارة بدون أن يهتم أحد بحفظ صورتها الأصلية ومن تأمل يجد بقرب الحصن من ناحية الشمال صخرة تسمى صخرة الماس يشاهد على سطحها عند سكون البحر وهدوه أثار أبنية قديمة ويرى حولها بعض أحجار منحوته زعم بعضهم أن موضع المنارة كان في هذه الصخرة ولكنا نُفِيل رأيه بأن هذه الصخرة لم تكن متسعة لا قديما ولا حديثا حتى أنها تسع قاعدة بناء عظيم يشبه المنارة.

***

obeikandl.com

منارة العرب

من المعلوم أن سلاطين المماليك البحرية كانوا قد شيدوا في محل منارة البطالسة حصنا منيعًا محاطا بسور ذي شرفات وكان بداخله منارة مربعة فوقها أربعة منارات صغيرة يعلوها مصباح تضرم فيه النار مدة الليل وكان هذا الحصن يحتوي في ابتداء هذا القرن على آثار كثيرة مختصة بالمدينة القديمة كحياض من الرخام وقبور وأعمدة من الجرانيت وتيجان أعمدة ومدافع من مدافع ذلك الوقت المشهورة بزيادة طولها وقنابل من الأحجار مختلفة المعايير وكان في بعض مخازن ذلك الحصن أسلحة وخوذ وحراب وجعاب يظن أنها مصنوعة من قبل الهجرة بزمن مديد وكان في جهات أخرى من ذلك الحصن سيوف وأسلحة علاها الصداء ويعلم من شكلها وما فيها من النقوش أنها من أسلحة الصليبيين ومن تجريدة الملك لويز التاسع وقد هدمت عساكر بونابرته كل هاتيك المعاقل وشيدوا الحصن مرة أخرى فصار متينا بعيد المنال بعد أن بذلوا الجهد في حفظ شكله الهندسي الأصلي وفي عهد المرحوم ساكن الجنان محمد علي باشا جرت عملية ترميمات تغير بسببها منظره ولما جاءت أيام شهر يوليه سنة ١٨٨٢ انهدم من قنابل الإنكليز وصار أثرا بعد عين.

الميناء الكبرى

إن الميناء الأصلية لمدينة إسكندرية هي الميناء الشرقية التي كانت تسمى قديما مانيوش بورتوس أي الميناء الكبرى وكان مدخلها محصورًا بين المنارة واكرولوشياس وقد وضح ذلك صاحب العطوفة ناظر المعارف العمومية في خططه فقال «إن الميناء كانت منقولة من جميع الجهات ما عدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ والظاهر أنه كان منقسما إلى قسمين أحدهما صغير وهو الذي كان من جهة المنار وقدره ١٠٠ متر تقريبا والآخر عرضه ٢٠٠ وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار وفي كتاب ماني الفرنساوي أن الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان والفتحة الثانية كانت بعد هذه وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث انهدم ولم يبق له أثر في وقته وكانت المراكب تمر بين الثاني والثالث من المنارات ولكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يستعمل إلا للمراكب الصغيرة والآخر هو الذي كان يكثر استعماله كانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد».

وكانت المراكب تتردد على هذه الميناء بكثرة فائقة لزيادة أهميتها وجزيل منفعتها وكان اليونانيون والرومانيون يؤسسون مساكنهم على الجزء الشرقي منها لأن السفن كانت لا ترسو عليه أما مبانيهم الأخرى المخصصة للتجارة والمنافع العمومية فكانت على الجزء الداخل منها حول قرية رقوده القديمة وحوضي يوستوس وكيبوتوس اللذين كانا عبارة عن مين ثانوية للميناء الكبرى

وكان شكل المينا في الزمن السابق هو تقريبًا عين شكلها الآن وقال استرابون إنها كانت عميقة جدًا بقرب الساحل حتى أن المراكب على اختلاف عظمها كانت تقف بجانبها وفي أيامنا هذه قد نقص هذا العمق لتراكم الرمال التي تقذفها الأمواج عليه منذ تغطي بالمياه جسر اكرولوشياس والصخور التي كانت تصد هجمات الأمواج عنه ومن مالت نفسه إلى نزهة أفكاره بالسير في البحر في يوم سماوءه صاحية يرى بقايا أبنية في داخل المينا كانت مشيدة على جزائر صغيرة طبيعية ومحدثة.

وفي سنة ١٨٧٣م عثر المرحوم محمود باشا الفلكي تحت استواء البحر بأربعة أمتار بصخرة تكون مع جسر اكرولوشياس حوضًا صغيرا عند رأس لوشياس وكان هذا الحوض يسمى بمينا الملوك وكذلك اكتشف على بقايا جزيرة صغيرة بعيدة عن الساحل بقدر ٣٠٠ متر وموضعها غربي مينا الملوك على بعد ٤٠٠ متر منها وشكلها شكل حدوة الحصان وعليها بقايا مبان قديمة ويظن أن النيمونوم كان مشيدا عليها وكان يتوصل منها إلى البر بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات.

وقال استرابون «ويوجد قبل مينا الملوك جزيرة صغيرة تسمى انتيرودوس كان مبنيا عليها بيت ملوكي» وقد اكتشف أيضًا المرحوم محمد باشا علي بعد ٦٥٠ مترًا تقريبًا من مينا الملوك لسانا من الأرض طوله ٢٠٠ مترًا يليه بناء تبلغ طوله ٣٠٠ متر ذو اتجاه مواز للهتستديون وقد سطا البحر على جزء من محيط المينا الكبرى المسماة الآن بالمينا الجديدة ابتداؤه موقع المنارة فسكة جديد الرسل فرأس لوشياس (السلسلة) وتوجد على هذا الساحل آثار قديمة أغلبها

مغمور بالمياه في جهات متعددة ويستخرج منها أعمدة جميلة تستعملها أغنياء الإسكندرية في بناء بيوتهم ويوجد أيضا على تلك الشواطئ أبنية من الأجر جدرانها الداخلية مطلية بالأسمنت وهيئة هذه المباني القديمة تحدو بنا إلى الظن بأنها كانت صهاريج وحمامات خصوصية كان يوجد فيها الماء المالح والماء العذب وتوجد على نفس هذا الشاطئ الذي صار في أيامنا هذه عمودي الشكل تقريبا أبنية أخرى خلاف التي من الأجر غير أن المصنوعة من هذا الأخير هي الغالبة وقد اكتشف بهذه الأماكن في سنة ١٨٠٢ تمثالان من الرخام الأبيض أحدهما تمثال الإمبراطور ماركوريل بجسامته الطبيعية والآخر تمثال سبتيموس سيفيروس وهو أكبر حجما من الأول.

وفي القرن السادس عشر من الميلاد سكنت الأتراك على الهبتستديون المهجور من ابتداء فتح المسلمين للإسكندرية وكان قد اتسع كثيرا بسبب تراكم الرمال على جانبيه وما زال يزداد اتساعا حتى وسع مدينة عظيمة ذات مباني عديدة خلفت مدينة البطالسه والرومانيين.

obeikandl.com

(في قصورها القديمة ومبانيها العمومية)

(في الكلام على المسلات والقيصر يوم)

كان يوجد في سنة ١٨٧٨ على ساحل المينا الشرقي بقرب محطة سكة حديد الرمل مسلة من الحرانيت الوردي تسميها العامة مسلة كيلوباترا ويبلغ ارتفاعها واحدا عشرين مترا تقريبًا وكان يوجد بقربها قبل ذلك بعدة سنين مسلة أخرى ملقاة على الأرض وقد أخذ الإنكليز إحدى هاتين المسلتين ووضعوها على شاطئ نهر التميز وأخذ الأمريكيون الثانية وكان اسم نوتمس الثالث أحد فراعنة مصر منقوشًا على الأولى واسم رمسيس الثاني على الثانية وكل منهما يدل كما شهد بذلك بلين وبعض مؤرخي الأزمان القديمة على مكان القيصر يوم أي هيكل قيصر.

وذكر صاحب العطوفة علي باشا مبارك في خططه ما يأتي.

«وقال بلين إن ارتفاع كل من المسلتين ٤٢ ذراعا وبمقارنة أجزاء المسلة إلى بعضها يرى ارتفاع الهرم الصغير قريبًا من عرض القاعدة وهذا العرض منحصر بين التسع والعشر للارتفاع الكلي وقد امتحنت جميع المباني التي من هذا القبيل فوجدت جميعها على هذه النسبة ومن هنا يظن أنه كان للمصريين قواعد لا يخرجون عنها في تفصيل أجزاء مثل هذه المباني وباعتبار طول الذراع المصري ٠,٤٦٢ مترا يكون ارتفاع المسلة إلى أصل الهرم ٤٠ ذراعا وإلى آخره ٤٤ وفي زمن البطالسه كانت المسلتان قائمتين أمام المعبد الذي كان بُني

بإسكندرية زمن الملكة كيلوباتره باسم القيصر والد ابنها وقد عاينه اشترابون حين ساح في بلاد مصر وذلك قبل الميلاد بأربع وثمانين سنة فنسبتها حينئذ إلى هذه الملكة لا شك فيها بخلاف خليج إسكندرية وما يسميه الناس بحمامات كيلوباتره فإنهما لا ينسبان لها أصلا فإن الخليج موجود قبلها والحمامات كانت مقابر لا غير».

أما القيصريوم المسمى أيضا بالسيباستيوم فقد ذكر عنه فيلون الإسكندري ما يأتي «لا بنية في الدنيا بأسرها تشبه الهيكل الذي شُيد تذكارًا للمكان الذي نزل فيه قيصر أغسطس من البحر إلى الإسكندرية وهذا الهيكل الجسيم الاتساع الذي لا يوجد له مثيل في أقطار الأرض بطولها والعرض كان قائما تجاه المين التي لا تطرقها نكبات الدهر وهو مملوء من النقوش والرسوم والتماثيل الذهبية والفضية ومحاط بسور عظيم عريض فيه أبواب كثيرة ومكاتب عديدة ومنازل للرجال وأماكن متسعة وقاعات فسيحة وبالجملة جميع أنواع المباني التي تدهش الأبصار بحسن تنميقها وبديع نظامها وهو كعبة أمل الذين يأتون إلى هنا من البلاد الأجنبية والذين يعودون إليه من أسفارهم».

ومن الصعب في هذه الأيام تتبع بقايا القيصريوم على أنه يرى الآن على شاطئ البحر بقايا أبنية توجد بينها أعمدة وتيجان أعمدة من الرتبة الدوربكية وفي سنة ١٨٧٥م عثر العالم العلامة نيروتسوس بك علي عمود رخام من بقايا الهيكل المتقدم الذكر مكتوب عليه باليونانية ما يأتي «من رؤساء العشر الموجودين بأسطول الحرس الإمبراطوري الروماني. واجبات العبودية للألهة

القيصريين المذكورة في هذا العمود. من قيصر لوسيوش فيروس أغسطس السنة السادسة».

ولم يتيسر للآن تحديد وضع هيكل قيصر بطريقة قطعية غير أنه من المظنون أن محور هذا البناء كان متجها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي بين قاعدتي المسلتين بحيث يكون مدخل هذا الهيكل إلى جهة البحر فترى المسلتان من مسافات بعيدة وربما كان وضع المسلتين إلى جهة البلد وهذا الوضع الأخير ملائم لمقتضيات الأحوال فكل اعتراض يقوم على هذا الفرض فهو لا محالة مدحوض وبما أن البحر قد سطا على الشاطئ وغطاه بالرمل فوجود المسلتين بقربه يظهر أنه ناشئ من تقدم الجزء المؤخر من الهيكل في البحر للسبب المتقدم الذكر.

وكان القيصريوم موجودًا في أيام استرابون الذي عاش ٣٢ سنة من أيام حكم أغسطس ولابد أن انطوان صاحب قيصر وكيلوباترا هوا الذي شيد القيصريوم أو كان أوكتاف بن أخ هذا الدكتاتور هو الذي شيده ولما مات هذا الرجل الجليل المقدار أصدر السيناتو أمرًا بجعله من عداد الألهة المعبودة واتبعت هذه الشعائر مدة زمن مديد بالإسكندرية وعلى ذلك فتكون المسافة الزمنية الكائنة بين هذا الوقت وبين موت كل من أنطوان وكيلوباتره ١٣ سنة على التقريب وهو الزمن الذي بني في خلاله القيصريوم وبعد أن مر على تأسيسه ثلاثة قرون قلب وضعه إلى كنيسة مسيحية سميت باسم الهيكل الأصلي وباسم سيباستيوم ولما اضطرمت نيران الفتن الداخلية بين الوثنيين والمسيحيين في سنة ٣٦٢ من الميلاد حرقت عساكر الإمبراطور يوليانوس هذه

الكنيسة وأزالت معالمها ثم شيدها الإمبراطور فالنسي بعد ذلك بسنتين وجعلها مقرا لبطارقة الإسكندرية واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن استولت العرب على هذه المدينة في سنة ٦٤٠ من الميلاد ثم هدم في سنة ٩١٢ في أيام الخليفة المقتدر بن المعتضد وقد وجد تحت أساس القيصريوم عدة قبور وجملة كل من أحجار كبيرة الحجم وهذا مما يثبت أن أحجار الهيكل استعملت لبناء قبور النصارى والاستحكامات العربية المعدة لتحصين المدينة من جهة البحر وبعد أن حاصر الفرنساويون مدينة الإسكندرية في سنة ١٧٩٨ شيدوا على مرتفع من الأرض كائن بالقرب من مسلات قيصريوم قلعة سموها قلعة كيلوباتره وعلى هذا فكان مرشح حروب بونابرته في عين المكان الذي تحصن فيه من قبله بثمانية عشر قرنًا الإمبراطور قيصر حينما حوصر في قسم السرايات الذي كان ممتدًا إلى تلك الجهة.

obeikandl.com

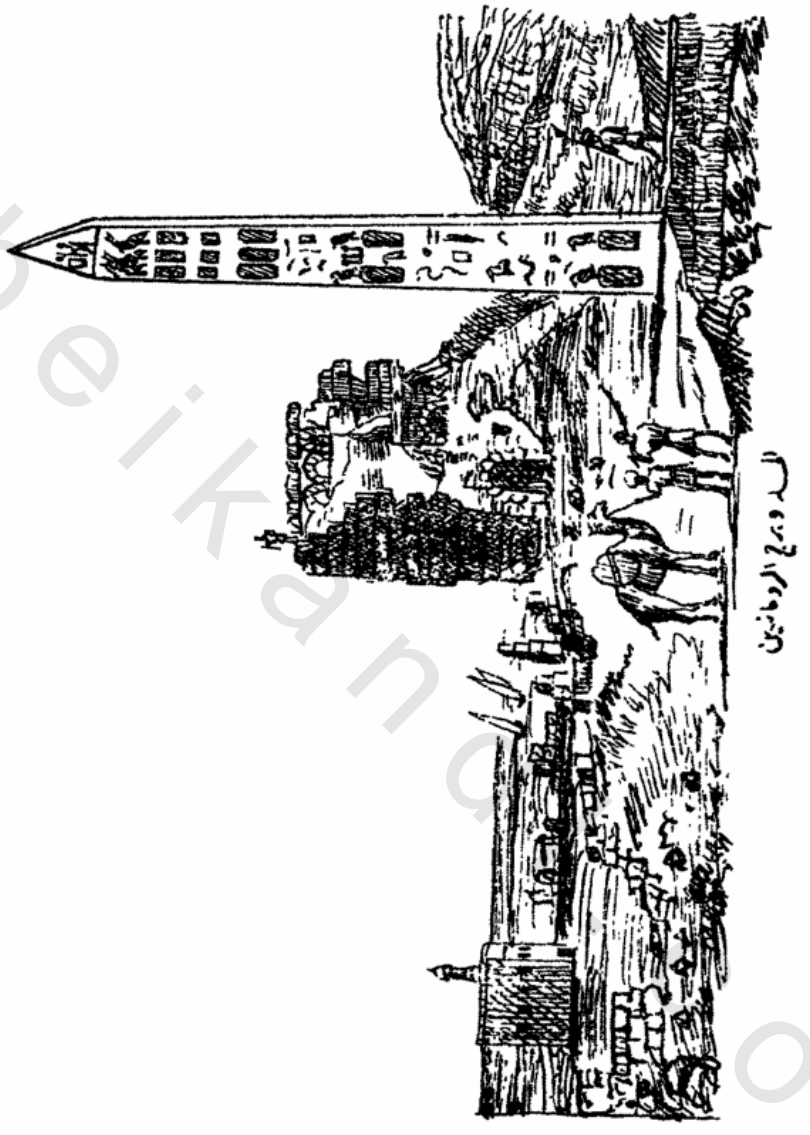

العمود الروماني

obeikandl.com

هيكل نبتون والتيمونوم

إذا بارح الإنسان جهة القصير يوم متبعًا الساحل شاخصًا إلى رأس لوشياس يرى شبه جزيرة محتوية على أبنية خربة توجد عند نهايتها صخور عديدة وبقرب هذه الصخور على بعد عدة أمتار منها خرابات أخرى في البحر لم تندثر إلى يومنا هذا.

وأما البناء الكبير المربع المبني بالآجر فيشاهد فيه قنوات عديدة وقباب متصلة ببعضها ومسامتة لأفواه أفران قد تحول ما فوقها من الآجر إلى ما يشبه الزجاج اللامع وذلك بسب تأثير النار عليه وليس هذا الأمر عام على جميع الجدران بل قاصر على البعض منها إنما يُرى على أي حال تأثير النار عليها.

ومما نشاهده من كيفية وضع هذا المكان وطريقة بنائه تحكم أنه كان معدا للاستحمام بالمياه الحارة ومما قاله الشهير استرابون في هذه الجهة يعلم أن هيكل نبتون كان مشيدًا عليها فإنه قال «ويُرى البوزيدوم بعد القيصريوم مباشرة والبوزيدوم هذا عبارة عن القطعة البارزة من الساحل إلى داخل البحر من المكان المسمى إمبوريوم وقد بنى في هذا المكان هيكل بوزيدون أي نبتون» وما كان على الشاطئ مكان أليق لتشييد هيكل لنبتون مثل هذا المكان ولذا سمي بالبوزيدوم وهي تسمية مستنبطة من أحد ألقاب هذا الإله على أنه لا يوجد على سواحل المينا الكبرى بقايا تدل بكثرتها على بناء ذي أهمية مماثلة لأهمية هيكل متوسط فضلا عن هيكل نبتون المشهور بعظم الاتساع فلذا نرى أن

البوزيدوم كان ولا شك مشيدًا على الرأس المصطنعة التي كانت موجودة بتلك الجهات في ذلك العهد ثم سطا عليها البحر بعد ذلك.

وأما وجود مباني لها علاقة بالحمامات فلا ينافي أبدا ذلك إذ لا شيء يمنع من وجود حمامات حول هيكل نبتون خصوصًا وأن هذه الحمامات كانت لم تشغل إلا الجزء الأسفل من تلك الآثار ولا داعي هناك للاندهاش والتعجب من هذا الفرض والتخمين فإن العادة في الأزمان السالفة قضت أن الحمامات لا توجد فقط حول السرايات بل أيضًا حول المباني الدينية ومن هنا لا نندهش من وجود حمامات في المكان الذي نحن بصدده.

ويرى قبل وبعد بقايا البوزيدوم آثار جسر كان داخلا في المينا وهو مركب من كتل كبيرة من الأحجار عرض الحجر منها متر واحد وطوله ثلاثة وهي موضوعة فوق بعضها طبقات ارتفاع الطبقة منها متر واحد ويُرى على الجزء الشرقي أيضا عدد من أحجار منحوتة وبقايا أفريز يظهر أن الجزء الأعلى منه قد تهدم واستعمل ما استخرج منه في تشييد بعض أبنيتنا الجديدة.

أما التيمونوم فكان مشيدًا في وسط المياه على نهاية امتداد طرف البوزيدوم وهو عبارة عن سراية منفردة شيدها الإمبراطور أنطوان بعد انهزامه في واقعة أكتيوم وذلك أنه لما هجرته خلانه وجفته أعوانه أقبل على الإسكندرية وصمم أن يعيش فيها منفردًا عن هؤلاء الناس وقال استرابون مبينًا وضع التيمونوم «وقد بنى أنطوان على نهاية البوزيدوم الذي كان هيكل نبتون مشيدًا عليه جسرًا طويلا انتهى إلى وسط المينا ثم شيد على نهايته هذه بيتا ملوكيًا سماه بالتيمونوم» وقال العالم الفاضل سنجنتيس الفرنساوي أن التيمونوم كان موجودًا على نهاية

جسر طويل متصل بقطعة بارزة من الساحل توجد قبل البوزيدوم مباشرة وليست متصلة بهذا الهيكل كما ادعاه البعض أما مبداء جسر التيمونوم فكان عبارة عن الشبه جزيرة الصغيرة المغطاة في أيامنا هذه بالمياه وهي التي توجد أمام الإنسان إذا غادر مكان القيصريوم والآثار البنائية الموجودة الآن هناك كانت متعلقة إذ ذاك بهذا الجسر.

obeikandl.com

اللوشياس وسراياته

يظهر أن النهاية الحالية لرأس لوشياس قد تغيرت كليا ولو أن مادتها المصنوعة منها صلبة قوية والسبب في ذلك هو أن رصيف أكرولوشياس والصخور التي تليه كانت لها بمثابة حصن منيع مدة طويلة من الزمن فلما أن سطا البحر على هذا الرصيف وما جاوره من الصخور تغيرت الصورة الأصلية للساحل.

وكانت أراضي لوشياس المثلثية الشكل مزينة بالبساتين النضرة والسرايات المشيدة المتقنة وكانت بالنسبة لحسن موقعها واعتدال هوائها تتهافت ملوك اليونان ووكلاء الرومان بين مصر على سكناها ثم أخذ الأمراء وكبار الموظفين من معية الملك وبطانته يشيدون القصور المفتخرة بجانب سرايات ملوكهم حتى صارت هذه الجهة مقرًا لأمراء الإسكندرية وأغنيائها.

وبعد أن تحلت هذه الجهات بتلك المزايا العظمى والاختصاصات الكبيرة واستمرت على هذا الزمن المديد أصبحت الآن وقد عضها الدهر بنابه قفرا بلتعًا خاوية على عروشها مجردة عن كل ما يزينها أو يدعو النظر إلى رؤيتها وصارت معرضة للأمواج تسطو عليها وتلتهم أراضيها حتى لقد ظلت الآن بمثابة جسم نُزع ما فيه من اللحم ولم يبق به إلا الهيكل أي العظام فقط فانظر – رعاك الله– إلى هذا الفرق الواضح والبون الشاسع فإنها في الأزمان الحالية كانت ذات منظر بهيج وكانت مقرًا للملوك والأمراء ومَربعًا للأغنياء والوزراء

هذا خلاف ما احتوت من الآثار التي لا يندثر ذكرها مدى الدهور والأعصار كهيكل نبتون والتيمونوم والقيصريوم ومسلاته الخ.

والآن لم يبق من هذه العجائب كلها إلا أراضٍ قاحلة لا يخترقها غدير من الماء العذب وتذكرنا البقايا المنتشرة بتلك الجهات ما كانت عليه تلك البلدة الزاهرة من البها والبهجة والسناء وتبين الفرق العظيم الذين بينها وبين المدينة الجديدة التي ليس لها في مجاراة الأولى أدنى نصيب ولا يخفى على الناقد البصير أن شمس العلوم قد أفلت واحتجبت عن أفق البلاد المصرية وعن الإسكندرية بالأخص لأن أهلها لما أرادوا أن يبرهنوا على جهالتهم اشتغلوا ببيع ما يقع بأيديهم من الآثار القديمة واستخراج ما بباطن البحر من الأعمدة الشمسية ليضعونها في زوايا بيوتهم أو في مداخلها ولم يعلقوا بحفظها أدنى أهمية ولكن يتعين علينا أن نحمد الله ونشكره على ما أودعه في هؤلاء الناس من الإحساسات الكريمة التي لولاها لدفعهم الجهل والطيش على استعمالها استعمالا يكون سببًا في تلفها.

ولقد وجد بعضهم في جهات كرموس تابوتًا مصنوعًا من حجر السيينيت وهو مجعول بصفة حوض تشرب منه خيول إسطبل بجانبه ووجد أيضا تابوتًا آخر من الرخام الأبيض وهو مزين بنقوش لطيفة كالأغصان وقد استعملته الكافة سبيلا تشرب منه السابلة وهو يوجد على باب إحدى القهاوي.

الموزيوم (المتحف)

قال استرابون «من متعلقات السرايات الملوكية الموزيوم وندوته الواسعة التي كانت تجتمع فيها للغداء أعضاء المجمع العلمي المسمى بمدرسة إسكندرية ومن المعلوم أن علماء هذه المدرسة كانوا يعيشون من الأرزاق التي تصرف إليهم من الخزينة العمومية على يد كاهن ينتدبه الملك لذلك أما في أيامنا هذه فالقيصر هو الذي ينتدب ذلك الكاهن».

وعليه فكان الموزيوم المتقدم الذكر عبارة عن مجتمع علمي أسسه بطليموس سوطر وهو المشهور باسم مدرسة الإسكندرية وكان رئيس هذه المدرسة بعينه الملك وأما بطليموس المتقدم الذكر فكان رجلا مهذبًا عالمًا يحب معاشرة العلماء والامتزاج بهم فخصص لسكناهم جزءًا من سراياته يظهر من تسميته إياه بالموزيوم أنه كرسه للإلهات المسماة (موز) [1] هذا وقد ورثت مدرسة الإسكندرية شهرة وأهمية مدرسة هليوبوليس أي عين شمس التي كانت مصدر العلوم والمعارف قبلا ولم يكتف علماء مدرسة الإسكندرية بحفظ علوم المتقدمين فقط بل شمروا عن ساعد الجد والاجتهاد لحل طلاسمها

(١) هن من ولد المشتري ومنيموزين وكن آلهات الفنون الأدبية وبالأخص الفصاحة والشعر وكانت تجمعهن وحدة الإخاء للدلالة على ارتباط الفنون ببعضها وكن تسعة الأولى كيلو وكانت آلهة التاريخ والثانية أو ترب آلهة الموسيقى والثالثة طاليا آلهة الروايات المضحكة والرابعة ملبومين آلهة الروايات المبكية والخامسة تربسيكور آلهة الرقص والسادسة ارتو آلهة الرثا والسابعة بولمنيا آلهة الشعر الغنائي والثامنة أورانيا آلهة علم الفلك والتاسعة كليوب ألهة الفصاحة والشعر الحماسي.

وعمل الاكتشافات العلمية المهمة وهم الذين جمعوا أشعار شاعر القدم هوميرس المشهور ولموا شعث الكتب الفلكية والشعرية التي كانت مكتوبة على ورق البردي ولا تزال محفوظة لأيامنا هذه في متاحف باريس وقد اندفعت همم طلاب هذه المدرسة إلى إتقان علم الفلك والرياضيات والتاريخ الطبيعي والطب والنحو والشعر والتاريخ والفلسفة وممن يشار إليهم بالبنان في هذه العلوم دمتريوس دوفالير واريستارك في النحو وهيروفيل وايرازسترات في الطب ونيازك وارستيد وهيبارقه وبطليموس وكانون في الهيئة وإقليدس وأبو للونيوس وديوفانت في الهندسة وأراتوستين واسترابون في تخطيط البلدان وسنيزيديم وشكستوس وبوتامون وأمونيوش ساكاس في الفلسفة وممن نبغ بالمدرسة الإسرائيلية أرسطبولس وفيلون وبالمدرسة المسيحية سان بنتان وسان كليمان وقد آلت هذه المدارس فيما بعد إلى حيث تؤول إليه المؤسسات الدالة على درجة تمدن الأمم فإن نور مجدها كان شديد السناء مدة استكمال تمدن ملوك اليونان الذين استولوا على بر مصر ثم انطفاء هذا النور في عهد غيرهم وكان انحطاطها حينئذ مقرونا بانحطاطهم وفي الواقع فإن البطالسة الثلاثة الأول وجهوا عنايتهم وصرفوا التفاتهم إلى هذه المدرسة الجامعة فارتفعت إلى أوج التقدم وطار صيتها وبَعُدَ صوتها في الآفاق ثم لما ألقيت أزمة الأحكام إلى من بعدهم من الملوك ساء حظها وسقطت من شاهق مجدها فما كان أشبهها بزهرة تفتحت أكمامها حين تبلج الصبح وتنفس ثم أخذت تزداد رونقا وبهاءًا حتى إذا ما هجم الليل بجيوشه ذوت فوقعت على الأرض ووطأتها أقدام العابرين.

هذا وكان السبب في سقوط هذه المدرسة من أوج رفعتها هو أنه لما فشت الفتن وعمت الإحن وتكدر صفو السلام وتراكمت سحب الاختلال والاضطراب تشتت شمل هؤلاء العلماء فانتشروا يبثون معلوماتهم في أهالي رودس واليونان وسوريا وقد سقط نجم مدرسة الإسكندرية بالكلية وأفلت شمسها بانقراض دولة البطالسة غير أن شهرتها استمرت قائمة على قدم الوجود بعد ذلك بقرن واحد كانت لا تزال فيه مهد العلوم والفنون.

obeikandl.com

دار الكتب

أما دار الكتب الشهيرة فكانت موضوعة في الموزيوم بالجزء المطل على المينا وذهب بعضهم إلى أن مؤسسها هو بطليموس سوطر في القرن الرابع قبل الميلاد وذهب البعض الآخر إلى أن مؤسسها إنما هو ابنه فيلادلف (٢٨٣ - ٢٤٧) وعلى أي حالة فإن الذي جمع الكتب في الحقيقة هو الكاتب المنشئ دمتريوس دوفالير الذي أتى في سنة ٢٩٠ ق.م إلى بلاط الملك سوطر ملتمسًا حماه فقابله سوطر بالإكرام الزائد وأفاض عليه خيره فلما رأى دمتريوس منه فوق ما أمل عاونه على جمع مجموعة من الكتب كان صمم على الاستحواذ عليها من قبل مجيئه ومع بذل الاجتهاد بلغ عدد ما جمع ٢٠٠٠٠٠ مجلد ولما كانت أيام فيلادلف أضيف على هذا العدد جميع كتب أرسطاطاليس التي حفظها تيوفرست زمنًا طويلا ثم أعطاها نيلة ابنه إلى ملك مصر على سبيل التنازل وكانت هذه المجموعة عظيمة جدا وكانت تحتوي على ما تيسر هذا الفيلسوف جمعه من كتب الفلسفة والعلوم والفنون وقد اختلف القدماء في عدد المجلدات التي كانت موجودة بدار كتب الإسكندرية فمن قائل أنها كانت تبلغ ٥٠٠٠٠٠ ومن قائل أنها ٧٠٠٠٠٠ ومن قائل غير ذلك غير أنه لا يجمل بناء أن نغتر بزيادة هذا العدد لأن أغلب المصنفات الكبيرة كانت مركبة من أجزاء صغيرة والذي حملهم على تقسيمها إنما هو سرعة عطب ورق البردي وصعوبة مسك المصنف الكبير باليد والقراءة فيه فمثلا مصنفات مارسيال التي كانت ذات أبواب عديدة قسمت إلى مجلدات بقدر عدد هذه الأبواب وكذلك قصائد الشاعر هوراس وبِناء على ما أبديناه كانت دار كتب

الإسكندرية أصغر بكثير من دور الكتب المتوسطة في عصرنا هذا ولئن كانت صغيرة بالنسبة لعدد المجلدات فهي كبيرة لنفاسة ما احتوت عليه من العلوم التي كانت غير منتشرة كل الانتشار في ذلك العهد وكانت دار كتب الإسكندرية موضوعة في جزء من المتحف والمتحف هذا كان عبارة عن بناء متسع به دار للكتب وقاعات للدراسة ومحلات لحفظ الآلات وبساتين نباتية وجنائن للحيوانات النادرة الوجود ومساكن للعلماء الذين تصرف لهم الأرزاق والمرتبات من طرف ملوك مصر أما باقي المجموعات المختصة بالعلوم فكانت محفوظة في البروشيون أو البروخيوم وفي السرابيوم وقد اختلف الرواة في سبب اندثار دار الكتب إنما الذي اجتمعت الآراء عليه في أيامنا هذه هو أن الكتب التي كانت محفوظة في البروخيوم تلقت بسبب الحريق الذي حصل في دوننمة قيصر حينما ثار أهل الإسكندرية ولكن هذا الخلل أصلح فيما بعد بكتب برغام التي أهداها الإمبراطور مارك أنطوان إلى كيلوباترا ووضعت برعاية هذه الملكة في السرابيوم وزعم البعض أنه لما صارت كتب الإسكندرية إلى هذا الحال دمرها عمرو في القرن السابع من الميلاد وهو زعم اتفق مؤرخو عصرنا على بطلانه وعدم صحته والحقيقة هي أن الكتب التي حفظت في السرابيوم دمرها النصارى في القرن الرابع أما الأخرى فهجرت إلى سنة ٨٦٨ من الميلاد وإذ ذاك أتلفها الأتراك لما احتلوا مدينة الإسكندرية وفي الموسوعات العظمى الفرنساوية في لفظه عمرو ما يأتي «وكان عمرو بن العاص شهماً كريماً حميد الأخلاق متحليًا برداء التمدن ولذا يبعد عن الظن أنه هو الذي أحرق دار كتب الإسكندرية التي كان قد دمرها النصارى من قبله بزمن مديد».

وفي الخطط الجديدة لمصر ما يأتي «إن إحراق السرابيوم كان بأمر البطريق تيوفيل بعد توقف كثير من العلما والأهالي ثم بنى محل السرابيوم كنيسة سميت أركاديوم من اسم القيصر أركاديوس المتولي تخت القيصرية بعد القيصر تيودوز الأكبر وجعل فيها دار كتب جمع فيها ما أبقته النار وشيئًا كثيرًا من كتب النصرانية وهي التي تنسب إحراقها إلى عمرو بن العاص لكن لم يعلم وجه انتساب ذلك إليه فإن هذه الحادثة لم يتكلم عليها أحد من المؤرخين في عصره من النصارى وغيرهم ولم يظهر ذلك إلا في القرن الثالث عشر من الميلاد من كتابة تنسب إلى أبي الفرج بطريق مدينة حلب مع أنه لم يذكرها في تاريخه العام».

«ولم يجد بولص أوروز شيئًا من الكتبخانة حين مروره بإسكندرية سنة ٤١٤ من الميلاد يعني قبل دخول عمرو بلاد مصر بمائة وثلاثين سنة فالظاهر أن القول بإحراق كتبخانة إسكندرية كان بأمر سيدنا عمرو محض افتراء اختلقته قسوس النصارى فإنه قد حصل إحراقها مرارًا قبل دخول الإسلام والكتب القديمة الموروثة عن الأعصر الخالية قد محتها أيدي النصارى».

obeikandl.com

السرابيوم

السرابيوم أو هيكل الإله المصري سرابيس كان مشيدًا في الجنوب الغربي من مدينة الإسكندرية على التل الذي يرى عليه لحد الآن عمود السواري وقال استرابون «إن هيكل السرابيوم والأماكن الأخرى المقدسة توجد بجانب الترعة وقد هجرت هذه الأماكن من عهد بناء هياكل نيكوبوليس حيث يوجد كل من الأمفتياتر (الملعب المدرج) والاستادة التي تعقد فيها الألعاب الغربية كل خمس سنين مرة».

وكان للإله سرابيس بمصر إذ ذاك عدة هياكل أقدمها هو الذي كان بمدينة منفيس وقال بوزنياس أن أكبرها هو هيكل السرابيوم وأن الذي شيده هو بطليموس سوطر على مكان معبد صغير كان معدًا لعبادة إيزيس وأوزيريس الإلهين الأخذين في حماهما سكان قرية رقودة القديمة.

ومن هنا يثبت الثبوت التام أن ملوك اليونان كانوا متدينين بديانة قدماء المصريين وقال اميان مرسلان «يوجد بمدينة الإسكندرية جملة هياكل تدهش النظر بفرط اتساعها وزيادة ارتفاعها ومع كل ذلك فكان هيكل السرابيوم أكبرها ارتفاعًا واتساعًا ولا يمكن للقلم أن يقوم بوصف ما بهذه البنية الجسيمة من غرائب الصناعة وعجائب الفنون فإني قد رأيت أن أبواب هذا الهيكل كبيرة جدًا ومنمقة بالأعمدة والتماثيل المنزهة عن النظير والمثيل التي تخالها تنطق مع أنها صامتة ساكتة وتتوهمها تتحرك وهي جامدة ثابتة إلى غير ذلك من الغرائب التي باستلفات نظري إليها واستجذاب عقلي لها جعلتني أحكم بأن ليس في

الدنيا بأسرها بنية تشبه هيكل السرابيوم وهيكل الكابتول بروما» وقال رفان الذي كان قاطنا بالإسكندرية في القرن الرابع من الميلاد «أن تل السرابيوم لم يكن تلا طبيعيا بل مصطنعا ويظهر للمتفرج أن الهيكل المشيد عليه معلقًا في الهوا غير ثابت على قاعدة ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد قطع مائة درجة من السلالم والجزء الأسفل منه تسامته القباب العظيمة وهو منقسم إلى مماش طويلة وقاعات مربعة للاحتفال فيها بالأسرار المقدسة أما الجزء العلوي منه فكان مخصصًا للعبادة ولمبيت الكهنة أما داخل المذبح فكان من الإتقان وزيادة التنميق بمكان لا يمكن معه القيام بوصف ما به من الزينة والنقوش العجيبة» وكان بالسرابيوم دار للكتب تحتوي على كتب نفيسة ولكنها لم تكن مثل دار كتب الموزيوم ولذا سميت بدار الكتب الصغرى ويظهر أنها كانت مجعولة في القاعات الواسعة المتعلقة بالهيكل وكان بها ما ينيف على ٥٠٠٠٠٠ مجلد من ضمنها ٢٠٠٠٠٠ مجلد أخذها أنطوان من دار كتب برغام وأهداها إلى كيلوباتره ولما أحرقت دار كتب الموزيوم ازدادت أهمية السرابيوم زيادة عظيمة حيث نقلت إليها مدرسة الإسكندرية وبقت فيها شيدة الأركان قوية الدعائم إلى آخر القرن الرابع من الميلاد وقال أمبير كان السرابيوم عبارة عن كعبة الديانة المصرية ومحط رجال طلاب العلوم الفلسفية.

قد نسب بعض المؤرخين إحراق دار كتب السرابيوم إلى عمرو بن العاص ذلك أنه لما فتح الإسكندرية كان بهذه المدينة عالم من علماء المذهب اليعقوبي يسمى يوحنا النحوي تعرف به عمرو وأحبه فانتهز يوحنا فرصة هذا الحب للالتفات وطلب منه أن يعطيه كتب الفلاسفة التي بدار الكتب فمال عمرو إلي تنفيذ مأربه ثم خشي أن لا يأذن له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله

عنه- فحرر له خطابًا يخبره فيه بطلب القسيس فكتب إليه أمير المؤمنين إن كانت تحتوي على ما في القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها وعلى كلا الحالين ينبغي حرقها [١] وقال أبو الفدا إن هذه الكتب استعملت لحريق حمامات الإسكندرية مدة أشهر متوالية وهو أمر من المبالغة بمكان عظيم فضلا على أن التصديق به يحتاج إلى الاستثبات وزيادة التروي ومن بحث يجد أن أبا الفدا كان موجودًا في أواخر القرن الثالث عشر من الميلاد أي بعد تاريخ الحوادث التي تصدى لذكرها بستة قرون أنه هو المؤلف الوحيد الذي تكلم في هذا الصدد أي أن عمر أحرق دار الكتب وجميع الذين نقلوا هذه الحادثة من المؤرخين لم يبدوا فيها ما عن لهم من الآراء والتمحيص بل نسبوها برمتها إليه وخصوصًا الأوروبيون منهم فإنهم بما في طباعهم من التعصب وفي أفئدتهم من تشيع زادوا هذه العبارة تهويلا ونسبوا للعرب التوحش والجهل وأطلقوا غلظة (عمر) علمًا على الجاهل إلى أن حصحص الحق وتبلج نوره فانقلبوا بأن ينسبون إلى أنفسهم هذه العملة الشنيعة حيث اعترفوا الآن أن تيوفيل بطريق الإسكندرية (٣٨٩) هو الذي دمر السرابيوم وبيان ذلك أن بعضًا من الفلاسفة والنحويين والشعراء التجئوا إلى هذا الهيكل فرارًا من بطش النصارى الذين كانوا يركضون وراءهم فظنوا أنها في موئل من انتقام أعدائهم منهم غير أنهم انجبروا على الذب عن ساحة ديارهم ودار ملتهم ولكن لم يجد اجتهادهم في

(١) ويظهر أن هذه الرسالة لم ترسل إلى عمرو بن العاص بل أرسلت إلى سعد بن أبي وقاص وذلك أنه لما فُتحت أرض فارس ووجدت فيها كتب كثيرة كتب هذا القائد إلى عمرو بن الخطاب يستأذن في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر -رضي الله عنه- أن أطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وأن يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار.

المدافعة نفعًا إذ أن النصارى رد إليهم منشور يأمرهم بتخريب جميع الهياكل الوثنية فقصدوا السرابيوم ودخلوا منه وكسروا مذابح آلهة المصريين بعد أن أخرجوا من كان فيه من الكهنة والعلماء ولما تم لهم الاستيلاء عليه حولوه إلى كنيسة سموها الأركاديوم وكنيسة أركاديوس خليفة الإمبراطور طيودوز الأكبر أما تمثال سرابيس الجسيم فقد سلبوا ما كان عليه من الحلي والزينة ثم هشموا وجهه ورموا أجزاءه في الطرق التي بجوار الهيكل وأثر ذلك تلقى بطارقة الإسكندرية أمرًا من طيودوز يخول لهم حرية اضطهاد كل ما كان غير متعلق بالديانة النصرانية فلما قرءوا هذا الأمر وفهموا مغزاه قست قلوبهم وغلظت أكبادهم فنفذوا بلا توان ولا إمهال وكان ما أظهروه من القساوة والأعمال الوحشية دليلا على تجردهم من عواطف الشفقة وأميال المرحمة لسعيهم وراء صالحهم الخاص ومنفعتهم الشخصية ولما وطدوا أركان ديانتهم أخذوا يضطهدون الناس ويعتدون عليهم لا يوزعهم عن ذلك وازع أو يلويهم عنه قول ناصح ومن الفظائع الكبيرة والنوائب المجتاحة التي أتى بها نصراء الديانة المسيحية بالإسكندرية (وهي أنموذج لما ارتكبوه منها) أنهم سبوا هيباطيا بنت العالم الرياضي المشهور طيون سبا علنيا وثلموا أشرفها وساموها خطة خسف وكيفية ذلك أن المسمى بطرس خطفها من عربتها وساقها أمامه إلى كنيسة القيصريوم تصحبه شرذمة من سفلة القوم وهمجهم فلما وصلوا إلى هذا المعبد جردوها من ثيابها وقطعوها إربًا إربًا ثم توزعوا أعضاء جسمها التي كانت تضطرب بأيديهم لبقاء آثار الحياة فيها وانطلقوا يحرقونها في المحل العمومي المسمى سينارون وقد حصلت هذه الفعلة الشنيعة أمام القديس سيريل أسقف الإسكندرية وابن أخ تيوفيل المتقدم الذكر وكانت هيباطيا ذات

حسن متألق ونضارة رائقة وطلعة لا تمل وكانت هذه الأوصاف الطبيعية ليست شيئا بجانب أوصافها الأدبية فإنها كانت ذات قريحة وقادة وبصيرة نقاده لها مشاركة كلية في الفلك والفلسفة وانتهت إليها أكثر الفنون ولذلك لقبت بالفيلسوفة وكانت تدرس للجمهور مذهبي أرسطاطاليس وأفلاطون.

وكان لهذا العهد لم تزل العلوم قائمة السوق مشرقة الأنوار قوية المعالم شديدة المقاوم سامية البناء إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية بمنشور طيودوز المتقدم (٣٨٩) فعفي نصراؤها معالم الحكمة وسبلها وأزالوا رسمها وطمسوا ما كانت أبانته القدماء وأوضحته الحكماء ولم يكتفوا بذلك فقط بل غيروا وضع الأبنية وقلبوا شكلها لتكون صالحة لشيء يلائم الدين الجديد ولما أتلفوا دار كتب السرابيوم انجبروا على تأسيس دار أخرى للكتب امتزجت فيها الفلسفة النصرانية بما بقي من فلسفة الوثنيين بإرشاد البطاركة وتحت ملاحظتهم فإذا تحقق أن عمرو بن العاص هو الذي حرق كتبخانة بالإسكندرية فإنما يكون حرق هذه الكتبخانة وليش كتبخانة السرابيوم كما ادعى البعض على أن من يراجع ما كتبناه في ذلك الموضوع بالفصل المتقدم ينفي عنه هذه التهمة بالكلية.

وقد دلت عمليات الحفر التي أجريت سنة ١٨٧٣ بإدارة ومعرفة المرحوم محمود باشا الفلكي أن السرابيوم كان مشيدًا على الأكمة الصغيرة التي يوجد عليها الآن عمود السواري وقد وجد تحت التراب جملة من التماثيل الحيوانية وصور طيور مصنوعة من حجر الجرانيت وعظام ثور وأعمدة كثيرة مكسرة وتيجان أعمدة وأبدانها وأثني عشر حائطا سمك الحائط الواحد منها متران.

وقال العالم المتقدم الذكر «إن من مشاهدة هذه الحيطان وفرط سمكها يعلم الإنسان اتساع البناء الذي كانت أساسًا له فإن طول أحد أضلاع هذا البناء بلغ ١٨٠ مترًا وفي وسطه عمود السواري» ومن هنا يتحقق لنا أن هذه الجدران هي من آثار السرابيوم يؤيد ذلك انطباقها على أقوال جملة من قدماء المؤرخين فإن منهم من قال «وهو كائن على مرتفع من الأرض في داخل البلد وعلى الشاطئ الأيمن من الترعة بقرب القنطرة الثانية الموجودة تحت الأرض».

ثم إن من اختبر التل بجد أن ارتفاعه يبلغ فوق استواء الطرق القديمة المجاورة له من ١٨ إلى ١٩ متر وهو مقابل بالضبط إلى المائة درجة التي ذكرها رفان وبواسطتها كان يصل الإنسان إلى باب الهيكل.

وإليك مؤدى ما قاله عبد الله بن خالد الملقب بالشامي الذي كان عائشا في القرن الثامن من الميلاد عند كلامه على السرابيوم «إن عمود تل السرابي كان في وسط مائة عمود آخر تحمل رواق الحكمة وكان هذا الرواق يحتوي على كتب قديمة ونفيسة جدًا مكتوبة بحروف لا يحل رموزها إلا العلماء والمنجمون وقد دمر النصارى هذه الكتب خوفًا من أن يتوصل سحرة الوثنيين بواسطتها إلى الإضرار بهم ولأجل أن يتاءكدوا من عدم بقاء كتاب من هذه الكتب فقد هدموا الذي كان يحتوي عليها وجعلوا أعاليه سافله على أن الدهر لم يتجاوز عن ذنبهم بل جازاهم بمثل ما فعلوا فساق إليهم عمرو بن العاص فأحرق خزانة الكتب التي أسسوها برسمهم».

وفي المرتفع الرملي الذي يوجد بين كرموس ومينا البصل خلف مكان السرابيوم عدد عظيم من الآبار والمسارب وجملة قاعات مظلمة تحت الأرض

تتصل ببعضها البعض من جميع جهاتها وهذه المباني عبارة عن كهوف النصارى أما الكهوف المحفورة من جهة الغرب فقد تخربت لضرورة استخراج الأحجار اللازمة للبناء منها ولم يبق الآن من هذه الكهوف إلا محلا صغيرًا كان معدًا للصلاة على الأموات اكتشفه العالم نيروتسوس بك سنة ١٨٥٨م وقد كانت اعتنت بها الحكومة في بادئ الأمر ثم تركتها تحت رحمى التلف والاندثار وأما قطع الفخار التي توجد منتشرة على سطح المرتفع المتقدم الذكر فليس بها من النقوش ما يستدل منه على أصلها ولكن ما يجده الإنسان أحيانا في تلك الجهات من المصابيح الصغيرة المصنوعة من الفخار يرى عليه رسم الصليب المنحني المختص بالمذهب المصري ويوجد بدلا من القنينات الضيقة المستطيلة المصنوعة من الطين المستوى أو من الزجاج لاحتواء المواد العطرية المخصصة لدهن جثث الأموات توجد مسائب مستديرة أو مسطحة كانت مستعملة لدهن جثث الأموات توجد مسائب مستديرة أو مسطحة كانت مستعملة عندهم لحفظ الزيت المبارك الذي كان يؤتي به من قنديل قبر القديس مناس بقرب بحيرة مربوط وكانوا يدهنون به الأحياء زاعمين أن به سر خفي يشفي كل داء عقام وكانوا يدهنون به الأموات أيضا لسلامة أرواحهم وقد عثر بعضهم على جملة وسامات تتعلق بالأزمنة الأخيرة من حكم قسطنطين الأكبر في أحد جهتيها صورته وهي غير واضحة كل الوضوح وفي الجهة الأخرى صورته بنفسه راكبا على حصان راكض وهو شير بيده إلى يد أخرى سماوية متدلية له من وسط السحاب كأنها تدعوه إلى السماء وبناء على ذلك فجميع هذه الآثار تدل على أنها متعلقة بالديانة النصرانية ومن مصنوعاتها بخلاف القبور فإنها لا تختلف في شيء عن باقي القبور الوثنية وكانت قبور النصارى

بإسكندرية كقبور غيرهم من المصريين واليهود واليونان الرومانيين مصنوعة على حسب مقتضيات القانون المذهبي المصري القديم والشرائع اليونانية التي كانت تحكم البلاد في ذلك الحين وهذه القبور إذا قال التاريخ بأن حرمتها انتهكت في وقت من الأوقات فذلك إنما هو لأن النصارى كانوا يستعملونها كمحل لاجتماعاتهم السرية حينما كان الجمهور يهمهم بأنهم عاملون على معاكسة الحكومة وإخفاق مساعيها وإحباط مشروعاتها وكانت أهالي الأموات وأقاربهم وأصحابهم وبعض من القسوس يجتمعون في أيام معينة لعمل الصلاة على أرواحهم بشرط أن لا يطلع أحد على ما يجرونه واستمرت هذه المصلاة محلا لإجراء الواجبات الدينية ليس إلا وكان النصارى يلجئون إليها عند وقوع الأخطار والأهوال بالمدينة وقد فعل مثل ذلك القديس أطناز فإنه اختفى في قبور عائلته أربعة شهور تخلصا من مظالم خصمه رئيس بطارقة القسطنطينية وذلك في عهد كل من فلنسيان وفلنس سنة ٣٦٧ ميلادية.

عمود السواري

إن أول أثر تتمتع بمشاهدته عين الإنسان إذا دنا من الإسكندرية هو عمود دقلطيانوس المشهور بعمود بومبيوس وهو الذي نسبت الكافة إنشاءه إليه بدون إعتماد على سبب سوي تذكار موت هذا الإمبراطور الروماني الشهير ببلاد مصر وهو منعزل على قمة تل السرابيوم أشبه شيء بشاهد قبر فهو يذكرنا بما واراه التراب حوله من بقايا المباني القديمة والمآثر الفخيمة وهو مركب من أربع قطع من حجر الصوان التاج والبدن والجلسة والقاعدة ويبلغ ارتفاع الكل ٢٨ مترا و٧٥ سنتيمترا للتاج منها ثلاثة أمتار وواحد وعشرون سنتيمترا وللبدن ٢٠ مترا ونصف وطول أعظم قطر فيه ٢,٦٨٤ وعلى حسب الوزن النوعي للصوان يكون وزن البدن وحده ٢٨٩٨٦٩ كيلو جرام ووزن العمود كله ٥٥٠٤٩٢ كيلو جرام.

وإذا شوهد من مسافة بعيدة ترى العين منه منظرا بديعا وهيكلا أنيقا يسر النظر ويذهل اللب لدقة قوامه وإتقان صناعته.

ولما كان هذا العمود من عداد الآثار المستحقة الذكر يجمل بنا أن نقول إنه يفوق جميع الأعمدة والمسلات التي من نوعه لما فيه من المزايا التي خص بها من غرابة الصنعة وحسن الذوق وزيادة التنميق حتى قلدته جميع الأمم في عمل الأعمدة التي تتحلى بها الآن مبانيهم وآثار شوكتهم ومن تآمل بعين البحث والنقد يرى أن عامود السواري مائل ميلا خفيفا إلى الجهة الجنوبية الغربية ويقال إن ذلك ناشئ عن تغير كتل الأحجار التي يستوي عليها السفل وليس

من هبوط الأرض تحته كما يتبادر للذهن وهذه الأحجار مختلفة الأشكال متباينة الحجم غير موضوعة على حسب ما يقتضيه النظام الهندسي فإن منها ما كان أصله قطعا كبيرة من أعمدة قديمة وهذه القطع موضوعة وضعا أفقيا ماعدا قطعة منها موضوعة وضعا رأسيا ومنها قطعة كبيرة من المرمر مكتوب عليها باللغة الهيروغليفية كتابة اندثر منها بعضها وبقي البعض الآخر وأما أساس السفل فمشهور بزيادة سمكه في الأرض ويكفي لمن أراد الوقوف على ذلك أن يزور بعض القبوات الموجودة عند أسفل هذا الأثر ويوجد مدخلها الذي يماثل مدخل القبو من الجهة الشمالية الشرقية من طرف المقبرة الإسلامية الحالية وسبب تخرب السفل ناشئ من بعض الخلل.

بالاطلاع على كيفية تشييد هذا العامود العظيم من وسائل العمارة رد على الذين كانوا يزعمون أن لا وجود لأعمدة يونانية بالإسكندرية وبعيدا عن هذه الأمور المردودة طبعا ببقاء هذا العمود المانع الصوان بالمحل الذي أسس فيه من اللحظة الأولى، ولما كانت سنة ١١٧١ ميلادية أمر أحد حكام الإسكندرية بتكسير أعمدة لتكون بمثابة حاجز يمنع هجوم الأمواج على سور المدينة، ويرد الأعداء من الشاطئ إلا أنه لم يجرأ على مس عمود السواري من هذا الاتجاه لأنه كان كثير النفع جزيل الفائدة وكفى به ذلك أن يكون دليل للقوافل والسفن التي تقصد الإسكندرية من أقاصي بلاد الغرب فضلا عن أن وجوده زينة للمكان الذي تقيم فيه الأهالي أعيادهم العرفية.

وفي أيام حكم الأتراك أي من ابتداء القرن السادس عشر أجريت ترميمات عديدة في السفل وقد أعاد الفرنساويون نفس هذه الترميمات بإنشاء قاعدة مربعة منتظمة حوله.

ويُرى على القاعدة نقش بالأحرف اليونانية مغزاة أن أحد ولاة مصر شيد هذا العامود تذكارًا للإمبراطور دقلطيانوس وتشعبت أقوال المؤلفين في هذا الوالي بسبب الخلل الحاصل في النقش أو الالتباس الواقع في هذا الاسم فالبعض منهم يذهب إلى أنه توبليوس أو بومبيس أو بومبيوس والبعض الآخر خلاف ذلك وعلى أي حال من الرواية التي نصت تكريس هذا العمود من بومبيوس الوالي هي المميزة عن غيرها لكثير من الوجوه منها أنها إثبات للمشهور من الآراء لأن في هذا البيان وإليك النص المنقول باللغة اليونانية كما هو.

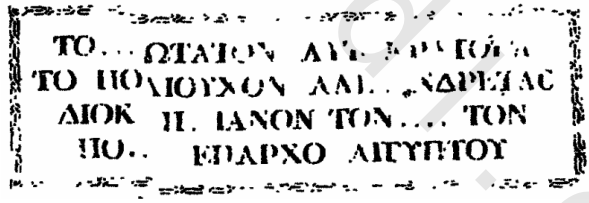

ومعناه هو «أني الإمبراطور الواسع العقل حامي الإسكندرية دقلطيانوس الجليل. قد كرس هذا الأثر إليك بو ... والي مصر».

يذكر أبو الفدا في تاريخه أن الذي شيد العمود هو الإمبراطور سيوير وهذا القول يظهر أنه من الحقيقة بمكان مكين لأن شكل العمود ونظامه يختصان بزمن أسبق من الزمن الذي كرس هو فيه للإمبراطور دقلطيانوس وبناء عليه تتعين صحة ما أبداه أبو الفدا من أن هذا العمود كان من أيام الإمبراطور سبتيم

سيوير في أواخر القرن الثاني من الميلاد وهو زمن كان الرومانيون فيه عارفين بدقائق علم الهندسة حتى أنهم شيدوا بالإسكندرية المدينة اليونانية عامودا من الشكل اليوناني ومن هنا يتحقق لنا أن العمود شيد باسم سيوير ثم أنه تكبد التغيرات المختصة التي لابد منها لكل أثر من الآثار العظيمة وأن الوالي بومبونيوس أو بومبيوس كرسه بعد ذلك اختلاسا إلى دقلطيانوس.

والظاهر أن الوالي المتقدم الذكر كرس هذا العمود لدقلطيانوس تزلفا إليه وهربا من ظلمه فيستنتج من ذلك أن هذا التكريس كان من قبل الوالي فقط وليس من قبل أهالي الإسكندرية الذين لا يتسنى لهم طبعا أن يهدوا أثرا مثل هذا العامود إلى من عاملهم بالقسوة والعنف وخرب بوزيره بس وكيبوتوس ليحيط بذلك مشروعات أحد وجهاء المدينة المدعو أشيله لقيامه بين أبناء وطنه وحثه لهم على الثورة والمناداة بالاستقلال ولا يخفى على الناقد البصير أن مثل هذه الآثار لا تهدي إلا لمن كان من الملوك حسن السيرة عادلا رءوفا برعاياه.

أما دقلطيانوس فالأفعال التي أتى بها هي غير ذلك حيث أنه انتقم بصرامة من أولى التظاهر وغير إدارات المدن والبلدان تغييرا مجحفًا بحقوقهم وأمتد ظلمه الذي صار اسما من أسمائه حتى أصاب الأقباط.

ولاشك أنه بعد إيراد هذه البراهين الشافية لا يتردد أحد في أن نسبة تشييد هذا العمود لدقلطيانوس هو من قبيل اختلاس الحقوق ومما ستعظمه الآن من سلوك الإمبراطور سبتيم سيوير مع أهالي الإسكندرية لا يبقى أدنى ريب في أن هذا العمود أنشئ في أيامه وشيد باسمه مترجما لما في قلوب الرعية من الشكر له والثناء عليه لما أجراه من الأفعال المشكورة والمآثر المبرورة يؤيد ذلك ما قاله

المؤرخ اسبارتيان من أنه لما دخل (أي سبتيم سيوير) في الإسكندرية عامل أهلها بالإحسان والرفق وكلمهم بعبارات تشف عن رضاه عنهم وارتياح خاطره منهم حتى أنه منحهم الأمر بتأسيس مجلس الشيوخ فانصاعوا خاضعين إلى المجلس راضين بأحكام قضاته الرومانيين ولم يكن لهؤلاء القضاة مجلس قضاء وطني تقليدا لما كانت عليه البطالسة من قبل ولو فرضنا أن العمود شيد باسم دقلطيانوس لذكر ذلك في النقش المتقدم فإن هذا الأخير قاصر على اسمي الإمبراطور وإليه ولم يذكر فيه السبب الداعي إلى تشييده فحينئذ يجب الحكم بأنه صار تغيير القاعدة الأصلية بالكلية واستبدلت بالقاعدة الموجودة الآن ويؤيد هذا الظن ارتفاع القاعدة الحالية زيادة عما تقتضيه قوانين الهندسة فضلا عن أن لونها مباين للون العمود وليست ناعمة مصقولة مثله ومما يثبت بأنه نسب إلى دقلطيانوس ظلما واختلاسا هو أن الإمبراطور المذكور كان قد حاصر الإكسندرية في سنة ٢٩٨ أما وجود الإمبراطور سبتيم سوير بالمشرق فكان من سنة ٢٠٠ وقال المستر ولسن أن من ضمن ما وجدته الإنكليز من الآثار المختلفة بمدينة الإسكندرية في سنة ١٨٠١ ميلادية حجر منقوش عليه ما تعريبه «وليعلم أي إنسان تملك هذا العمود أنه شيد شرفًا وتذكارًا للإمبراطور سبتيم سيويز من عساكر الفرقة الحادية عشر».

وأما العمود فهو مصنوع من الجرانيت الوردي الجيد الصقل ما عدا الجهة المعرضة منه للصحراء فإنها خشنة بسبب تأثير الرمال عليها ويرى على سطح التاج محيط دائرة عرضه سبعة سنتيمترات وقطره متران ذهب البعض إلى أنه كان معدا لتثبيت قاعدة تحمل تمثالا من الرخام.

وزعم البعض أن هذا التمثال كان من النحاس وكان متجها نحو البحر يشير بأصبعه إلى مدينة القسطنطينية وزاد هذا القائل أن أحد حكام الإسكندرية أمر بنزعه من محله وضربه عملة وقال العالم يوسف نجم الدين المندوب الذي كان عائشا في القرن الثامن من الميلاد أنه كان يوجد تمثال من الحجر بأعلى العمود القائم في وسط الجهة التي يظهر أنها كانت فيما سبق حوش هيكل وثني هدمته النصارى وبنت مكانه قلعة ونذكر هنا برهانا آخر يؤيد أن العمود أقيم في أيام الإمبراطور سيوير وهو أنه لما كان يصعب النطق في لغة العرب بلظفة سيوير على صورتها الأصلية حرفتها العرب على توالي الزمن فصارت سواري وظنوا كما يتبادر للذهن أن هذه اللفظة الأخيرة هي جمع ساري.

وإذ قد وصلنا لهذا الحد من وصف عمود السواري فنحن نسرد هنا أقوال من مر على الإسكندرية من مشاهير العلما وجوابي الآفاق تتميما للفائدة فنقول قال عبد اللطيف البغدادي: «عمود السواري أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جدًا شاهق الطول لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعًا وقطره خمسة أذرع وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندم تفتقر إلى قوة في العلم برفع الأثقال وتمهر في الهندسة العملية وخبرني بعض النقاة أنه قاس دوره فكان خمسة وسبعين شبرا بالشبر التام ثم أني رأيت بشاطئ البحر مما يلي سور المدينة أكثر من أربعمائة عمود مكسرة أنصافًا وأثلاثًا حجرها من جنس عمود السواري على الثلث منه أو الربع وزعم أهل الإسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السواري وأن بعض ولاة الإسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف بن أيوب فرأى هدم هذه الأعمدة وتكسيرها وإلقاءها بشاطئ البحر زعم أن ذلك يكسر

سورة الموج عن سور المدينة أو يمنع مراكب العدو أن تسند إليه وهذا من عبث الولدان ومن فِعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة ورأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف».

وقال ياقوت «ولقد دخلت الإسكندرية وطوقتها فلم أر فيها ما يعجب منه إلا عمودا واحدا يعرف الآن بعمود السواري تجاه باب من أبوابها يعرب بباب الشجرة فإنه عظيم جدًا هائل كأنه المنارة العظيمة وهو قطعة واحدة مدور منتصب على حجر عظيم كالبيت المربع قطعة واحدة أيضا وعلى رأس العمود حجر آخر مثل الذي في أسفله فهذا يعجز أهل زماننا عن معالجة مثله في قطعه من مقطعه وجلبه من موضعه ثم نصبه على ذلك الحجر ورفع الآخر إلى أعلاه ولو اجتمع عليه أهل الإسكندرية جميعهم فهو يدل على شدة حامليه وحكمة ناصبيه وعظمة همة الآمر به».

وقال بن بطوطة في رحلته «ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة قال ابن جزي أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفًا أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به وكيفية احتياله في

صعوده أنه رمي بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضًا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض وتعلق صاعدًا من الجهة الأخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه».

وفي الخطط الجديدة ما يأتي «ووصفه العالم الروماني أفتونوس السائح في بلاد مصر وإسكندرية في القرن الرابع من الميلاد بقوله متى دخل المرء قلعة إسكندرية وجد مكانا محدودا بحدود أربعة متساوية وفي وسطه فضاء متسع محاط بأعمدة وبعدة دهاليز فيها قيعان بعضها لحفظ الكتب المجعولة لمن يريد المطالعة في العلوم والحكم وبعضها معد لعبادة المقدسين وفي وسط هذا الفضاء عمود عظيم الارتفاع وهو علم يستدل به على هذا المكان لأنه تغير عن حالته الأصلية فيتحير الإنسان ولا يدري أين يتوجه إذا أراد هذا المحل إلا بهذا العمود فهو دليل لمن أراد هذا المكان من أهل البر والبحر».

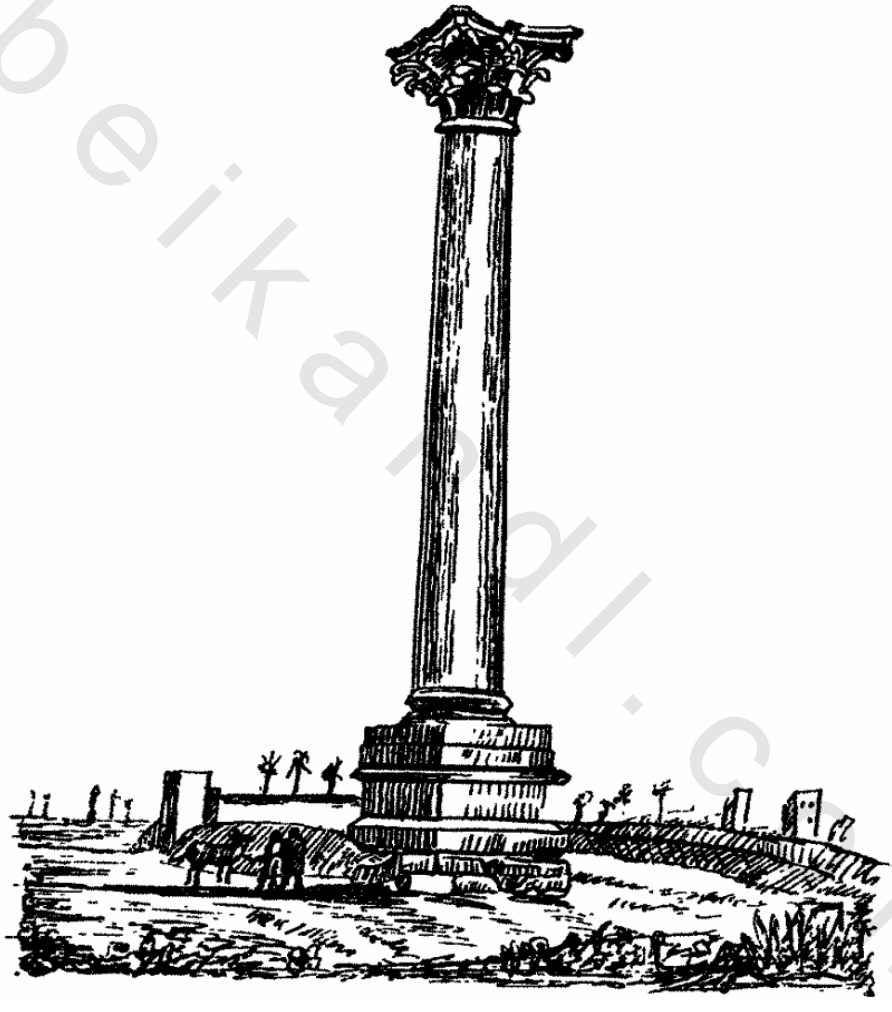

عمود السواري

obeikandl.com

(سوما وقبر الإسكندر)

قال استرابون «أن المحل المسمى سوما أي الجسد هو جزء من السرايات الملوكية وهو عبارة عن سورمتين يحيط بقبور الملوك وبقبر الإسكندر وقد أخذ بطليموس بن لاغوس جثته من برديكاس وقت أن كان مارا بها في طريق مصر على عربة عظيمة يجرها أربعة وستون بغلا في تابوت من الذهب وقبرها في المحل الذي هي فيه الآن غير أن التابوت المتقدم أخذ فيما بعد وعوض بتابوت آخر من الزجاج والذي فعل ذلك هو بطليموس كوكسيس الملقب بباريز كتوس» فيعلم من ذلك ومما قاله بعض المؤرخين أن موضع سوما هو في أسفل التل المشيد فوقه حصن كوم الديماس.

والتلال الموجودة بتلك الجهة تحتوي على جملة قبور خاصة بأزمان متفاوتة وموضوعة فوق بعضها طبقات وهي توجد في داخل سور المدينة الحالي المشهور بسور العرب وهو عين السور القديم البيزنطي الذي رممته العرب في أزمان مختلفة ويوجد عند سفح كوم الديماس من الجهة الشرقية تحت السراديب الأولى القبور العربية المختصة بالمدة الكائنة بين القرنين الثامن والحادي عشر من الميلاد ويوجد تحت هذه القبور قبور النصارى ثم قبور الوثنيين.

وقد بني مسجد النبي دانيال فوق جميع هذه السراديب وجميع منحدر التل المحصور بين الجامع المذكور وبين الشارع الحالي المسمى بشارع باب شرقي أعني شارع كانوب القديم مملوء بقبور وسراديب تختص بما قبل المدة البيزنطية ومدد الإمبرطرة والبطالسة يؤيد ذلك ما وجد فيها من التماثيل التي من ضمنها

كان تمثال هرقول مصنوعًا بالمرمر وقد عثر عليه عند حفر أساس بعض البيوت وهرقول (الذي كانت تعتقد فيه القدماء أنه نصف إله) كان ممثلا في هذه الصورة عاري الجسد وعلى ركبتيه جلد أسد وذراعه الأيمن الذي كان ممدودًا للأمام فهو مكسور وأظنه كان حاملا لتفاح جبال الهسبريد أما يده اليسرى فمستندة على عصا ضخمة وإنشاء هذا التمثال هو من أحسن ما وصلت إليه فنون اليونان في ذلك الوقت.

وتاريخ وجود هذه الآثار هو من أيام البطالسة ويحدو بنا إلى الحكم بأن السوما كان موجودًا في كوم الديماس وذلك لأن موضع هذا المكان مطابق بالضبط لما رواه أغلب قدماء المؤرخين فقد قال أحدهم «إن السوما كان يوسط البلدة تقريبًا وهو يطل على شارع عظيم محفوف من جانبيه بالأعمدة الكبيرة يتقابل مع الشارع الطويل المسمى بشارع كانوب (باب شرقي) وينتهي إلى المينا الكبرى بقرب القيصريوم».

ولدينا برهان آخر يؤيد مدعاتنا المتقدمة وهو أن لفظة سوما أو سوماس اليونانية تشبه في النطق تقريبا لفظة ديماس العربية التي أغلب حروفها مثل أغلب حروف الأخرى وكانت لفظة سوماس تطلق على هذا المحل نفسه إلى أن دخلت العرب مدينة إسكندرية فتحرفت هذه الكلمة بكثرة التداول وصارت ديماس.

(البانيوم والجمناز والأيبودروم الخ)

البانيوم كان عبارة عن تل مرتفع في وسط الإسكندرية وكان يمكن للإنسان أن يرى من أعلاه جميع أحياء المدينة وضواحيها إلى مسافات بعيدة جدا وكان يصل الإنسان إلى أعلاه بواسطة مدرج حلزوني الشكل وكان البانيوم المذكور الذي معناه «المنظر الشامل» أو «المنظر الجميل» محل اجتماع المتفسحين الذين كانوا يأتون إليه أفواجا أفواجا طلبا للنزهة والراحة والتمتع بالنظر إلى جميع ما بالإسكندرية وضواحيها من المباني وغيرها وهو في أيامنا هذه عبارة عن كوم الدكة.

قال استرابون «أن الجمناز أي محل ترييض الجسم بالألعاب كان موجودًا في الشارع الكبير المسمى بشارع كانوب» ولم يتعين للآن موقعه بالضبط والدقة غير أن عمليات الحفر التي أجريت أخيرًا بالجهة الشمالية الشرقية من البانيوم أي قرية كوم الدكة الحالية أدت إلى اكتشاف أسوار ضخمة وعدد عظيم من الأعمدة وتوجد هذه البقايا على مسافة طولها ١٥٠ مترا باتجاه خط عمودي على الاستحكامات العربية ولا بد أن تكون هذه البقايا متعلقة بالجمناز ومحكمته التي كانت تسمى الديكاستريوم وبساتينه وكانت مساحتها عبارة عن مربع من الأرض طول أحد أضلاعه أكثر من استاده أي ١٢٥ خطوة.

وإذا خرج الإنسان من سور العرب بقرب الجهة التي بها برج الرومانيين (أو بالاءحرى إذا اخترق سكة حديد الرمل) وصار على ساحل البحر يجد في كل خطوة يخطوها آثار مبانٍ قديمة كالحمامات والعقد الجسيمة المصنوعة من

الطوب الأحمر والأسمنت وجدران أفريز مبني بالأحجار الجسيمة وغير ذلك من البقايا التي أودت بها أيدي الرجال والتهمتها أفواه الأمواج.

وإذا استمر الإنسان على السير متبعًا ساحل البحر يجد على يمينه بقايا قصر عظيم مشهور بقصر القياصرة ويجد على بعض ٨٠٠ من تلك الجهة بقايا هيكل روماني صغي على ساحل البحر وعلى بعد ٤٠٠٠ متر من باب شرقي بقرب التلول المجاورة لقصر القياصرة محل المقتلة الهائلة التي حصلت بين الفرنساويين وجيوش الإنكليز والأتراك في ٣٠ فنتوز سنة ٩ من الجمهورية الموافق ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ميلادية.

وإذا زار الإنسان يومًا عمود السواري يرى في الجهة الجنوبية من هذا الأثر المنيف مكانًا واسعًا مستطيل الشكل عميقًا محاطًا ببقايا لبغية كانت مخفية تحت الأرض وهذا المكان الذي طوله ٥٥٥ متر وعرضه ٥١ مترا ونصف كان معدا للسباق وكانت تسميه القدماء بالابيودروم ويرى لحد الآن في وسطه آثار بناء عرضه ثمانية أمتار وله سقف طويل جدا بالنسبة لعرضه وكانت تركض حوله اللاعبون وفي النهاية الغربية من هذا البناء ثقب متصل بقناة تحت الأرض وهذه القناة متصلة ببحيرة مربوط لاستجلاب مياه هذه البحيرة إليه فيستنفع بها موظفوه في الأمور التي لها مساس بالنظافة وغير ذلك.

وكان الجزء المخصص من هذا المكان للعب مبلطا فلذا يظهر لنا من ذلك أنه لا يصح أن يكون هو الأيبودروم إذ أن من العادة أن يكون الأيبودروم مخصصًا فقط لسباق الخيول ولا يصح طبعًا أن تتسابق الجياد في ميدان مبلط بحجر النحت ومما يؤيد مدعانا بأن المحل المذكور لم يكن مخصصاً لسباق

الخيول هو عدم استكشاف مكان يظهر منه أن الخيول كانت تنزل منه إلى الميدان فضلا عن أن الطريق المعد للركض فيه ليس متسعًا بحيث يسع الخيول أو العربات لتتسابق فيه فمن هنا ينتج أن هذا المكان هو الذي كان يسميه القدماء بالاستادة الأولمبية وهو من الموءسسات اليونانية لأنه لا يخفى أن الاستادات كانت منتشرة في أنحاء بلاد اليونان وكانت مخصصة للجري بالأقدام ولألعاب أخرى تناسب ذلك.

أما أيبودروم الإسكندرية فكان موضوعًا في نهاية شارع كانوب والذي نقل إلينا ذلك هو استرابون وفي الواقع فإنه يوجد في الجهة التي دل عليها هذا العالم مسطح من الأرض واسع بعلم من هيئته أنه كان مخصصًا لبناء من هذا النوع وقد وجد هناك مهندسو التجريدة الفرنساوية كتلا كبيرة من الأحجار وآثار أسوار سميكة باستواء سطح الأرض.

وإذ كانت الآثار القديمة آخذة في الاختفاء والاندثار على توالي الأيام ومر الدهور والأعوام فقد اختفت آثار بلدتنا إيفاءًا بشروط هذا القانون إما تراكمت عليها الرمال وإما اتخذت بصفة مواد لبناء البيوت الجديدة وإما مختفية تحت مباني المدينة الحالية ولم يبقَ ظاهرًا للعيان من هذه الآثار المنيفة إلا عمود دقلطيانوس وذلك بسبب ارتفاعه فاحترمه الزمن ووقرته الناس فلم يُمسسْ بسوء وفي الأمل أنه سيبقي كذلك زمنا طويلا اللّٰهم إن لم تنشله أيدي الطمع وحب الأثرة لتتزين إحدى ساحات مدينة من مدن أمريقا أو أوروبا.

(الكهوف (الكتاكومب))

يوجد على الصخور الحجرية الواطية المعرضة لصدمات أمواج المينا القديمة من قرون مضت عدد عظيم من الكهوف المخفية التي كانت من ضمن نكروبوليس (مدينة أموات) إسكندرية القديمة وجميع هذه الكهوف تتصل بالبحر وبها قاعات حمامات مختلفة الاتساع وقاعات أخرى معروفة عند العامة بحمامات كيلوباتره ولم تكن في القدم إلا بمثابة نوامات لوضع الأموات فيها وفي نفس هذه الجهة يوجد أثر منيف قيل بإنه قبر لأحد الملوك ولا يمكن الإنسان أن يدخل فيه اليوم إلا بصعوبة زائدة لامتلائه برمال البحر والردم وإذا تأمل الإنسان يجد أن اعوجاج الساحل يكون على بعد ستين مترا تقريبا من حمامات كيلوباترا جونا صغيرًا عرضه ستة وعشرون مترا وعمقه ضعف هذا العدد ومدخله مغلوق بصخرتين عظيمتين بينهما فضاء ضيق يسمح للقوارب الصغيرة (الفلايك) فقط المرور منها وفي آخر هذا الجون يرى المتفرج مدخل الأثر المتقدم الذكر أشبه شيء بثقب ضيق في وسط منحدر الساحل وإذا دخل الإنسان من هذا الثقب يجد نفسه في قاعة يمكنه أن يقف فيها بدون أدنى عارض يمنعه عن ذلك ثم يرى يمنة ويسرة قاعات صغيرة مربعة تستوي سقوفها على أعمدة مربعة الشكل وبعد ذلك يدخل في قاعة أكبر من المتقدمة لا يمكن معرفة ارتفاعها بسبب تراكم الرمال فيها ويوجد على جانبين من جوانبها قاعتان صغيرتان إحداهما تتصل بواسطة فتحة في الحائط إلى دهليز متسع طوله اثني عشر مترًا يوصل إلى قاعة جميلة مستطيلة الشكل وعلى جوانبها أربعة أبواب جميلة ثلاثة منها محمولة على أعمدة مربعة حاملة لقناطر

مثلثة الشكل مزينة بنقوش تعلوها صورة الهلال وعلى اليسار من ذلك بناء مستدير مجوف قطره سبعة أمتار ويوجد حوله تسعة أضرحة وهذه القاعة ليست ملآنة بالرمال كباقي القاعات المجاورة لها بحيث لا شيء فيها يمنع الإنسان من التأمل في جميع أجزائها التي يكون لها المنظر البديع والشكل الأنيق إذا أتت الأشعة الضوئية وانعكست على الطلاء البلوري الشامل لجميع الجدران.

وإذا رجع الإنسان إلى القاعة التي بعد البناء المستدير المجوف المتقدم الذكر يترك على يساره دهليزًا هو في الحقيقة تتمة الدهليز السالف ويدخل من باب كبير في قاعة مربعة طول أحد أضلاعه ١٦,٢٠ وسقفها الأفقي محمول على اثني عشر عمودًا كبيرًا ولا يزال النقش باقيا على ما كان عليه من الطلاوة والبهجة وبكل من الأضلاع الموازية للمحور ثلاثة أبواب أما أبواب الزوايا فهي أصغر بكثير من السابقة والنقوش التي تعلوها مرسومة باللون الأحمر ويظهر من ذلك أن بناء هذا الأثر كان لم يتم ومن الغريب أن كل زاوية من زوايا هذه القاعة متجهة إلى جهة من الجهات الأربعة الأصلية الشمال والجنوب والشرق والغرب وإذا دخل الإنسان من الأبواب الموجودة بالوسط يرى قاعتين بجدران كل منهما ثلاثة طبقات من الفتحات يظهر أنها كانت معدة لحفظ الأجساد المحنطة ولو سار الإنسان على المحور الأكبر لهذا البناء لا يمكنه التقدم إلى الأمام لداعي تراكم الرديم الذي صار بمنزلة عائق يمنع المتفرج من الوصول لهذا الغرض.

ويظهر للإنسان بعد التأمل الدقيق والفحص أن القاعة ذات الاثني عشرة عمودًا السالفة الذكر يجب أن تكون في وسط هذا البناء الذي كان مدخله من جهة البحر ويتحقق للإنسان أن وجود أثر من أهمية الذي نحن بصدده في وسط قرية نكروبوليس القديمة لابد أن يكون لغرض مهم هو أن يكون جدثا لشخص من الأشخاص ذوي القوة والجاه كالملوك ومقبرة لمن يموت من أقاربه فيدفن حوله وبجانب القبور المذكورة قاعات لإقامة الشعائر الدينية فيها وعلى العموم فإن شكل هذه المباني يحملنا على الجزم بأنها قبور البطالسة التي أسرع أهل الإسكندرية بإظهارها إلى أوكتاف بعد أن بينوا له موضع قبر الإسكندر وربما كانت هذه القبور أيضًا هي التي التجأت إليها كيلوباتره فإني بروكوليوس أحد قواد جيش أوكتاف وأخذها منها وذلك بعد انهزام الإمبراطور أنطوان وموته.

وإذا مر المتفرج على باقي الكهوف الموجودة بتلك النواحي يرى آثار ترعة كانت توصل في الزمن السابق مياه بحيرة مربوط بالبحر المالح وما يلي ذلك من الساحل فهو قفر بلقع لا يوجد فيه سوى محاجر يظهران أهالي الإسكندرية الأقدمين كانوا يستخرجون منها ما يلزم لهم من مواد البناء لتشييد منازلهم وتحصين معاقلهم وعلى بعد عشرة آلاف متر من حمامات كيلوباتره توجد الجهة التي كانت تسمى سرزوبز وهي المعروفة في أيامنا هذه بجهة مرابوط وكانت عبارة عن قلعة صغيرة مشيدة على طرف الصخور التي تغلق الموردة من الجهة الجنوبية الغربية وهي التي في ضواحيها نزلت العساكر الفرنساوية إلى البر في ١٣ مسيدور من السنة السادسة من الجمهورية أي أول أول يوليه سنة ١٧٩٨م.

(الصهاريج)

من الآثار القديمة التي تذكرنا ما كانت عليه الإسكندرية في أيام عزها من الشوكة والاقتدار الصهاريج العديدة التي كانت معدة لادخار المياه اللازمة لشرب سكانها كل سنة فإن المياه كانت تصل إلى هذه الصهاريج بواسطة خلجان صغيرة تحت الأرض متصلة بترعة كانوب وقال المؤرخ هريتوس «وفي كل منزل من منازل الخاصة بئر تتصرف إليه مياه الترعة بواسطة الخلجان فتستقر فيه ثم تصفو وتروق شيئا فشيئا وليس بالإسكندريةينابيع طبيعية فلذا كان فقراؤها يقصدون الترعة نفسها للحوصل على الماء وبما أن هذا الماء كان عادة غير نقي بل ممزوجًا بالطين كانت الأمراض تنتشر فيما بينهم وتفتك فيهم فتكًا ذريعًا».

وقال المرحوم محمود باشا أن ما عثر عليه من الصهاريج في مدينة إسكندرية يبلغ ٧٠٠ بعضها مركب من طبقتين والطبقة العليا محمولة على أعمدة من الرخام أو الزلط وفي المواضع المرتفعة من المدينة كانت تبلغ طبقات الصهاريج أربعة ولم تكن جميعها تملأ من الخلجان بل كان يملأ أكثرها بالقرب وفي الخطط المصرية لصاحب العطوفة ناظر المعارف العمومية ما يأتي «وفي كتاب جركي الفرنساوي أن جليس بيك عند إجرائه عمليات الاستحكامات كشف عن ٨٩٦ صهريجا مبنية جميعها بالحجر واصلة ببعضها وتأخذ ماءها من خليج كبير يشق البلد ويمتد إلى بحيرة مربوط وكانت تنظف كل سنة حتى لا يضر ماوءها بالصحة».

وقد وجد من هذه الصهاريج في أيام ساكن الجنان محمد علي باشا أكثر من ٣٠٠ صهريجا صالحا للاستعمال و٧٣ ساقية يصل ماء الترعة إليها بواسطة أربعة مجاري وكان أحد هذه المجاري يصب في المينا القديمة أي مينا أونوستوس فيأخذ الملاحون منه ما يلزمهم من الماء ولما أمر المغفور له محمد علي باشا بحفر ترعة المحمودية بطل استعمال السواقي والصهاريج وكان ذلك من ضمن أعماله المشكورة التي لا يمحيها كر الدهور ومر الأعوام والسلام.

***

obeikandl.com

فهرس

إهداء الكتاب ٣
لمحة عامة..... ٧
عصر اليونانيين..... ١٢
إسكندر الثالث المقدوني..... ١٥
البطالسة ٤٣
بطليموس سوطر الأول بن لاغوس ٤٥
بطليموس الثاني فيلادلف أوفيلوذفوس بن سوطر ٤٧
وصف الاحتفال المتقدم الذكر..... ٥٠
بطليموس الثالث أفرجيطه الأول أو أوراخيطس ٥٦
بطليموس الرابع فيلوباطور (محب أبيه) ٥٨
الملك بطليموس أبيفان أوفينفوس ٦٠
المنشور ٦٠
بطليموس السادس فيلوميتوراي محب أمه..... ٦٣
بطليموس السابع أفرجيطه الثاني أو أوراخيطس..... ٦٤
بطليموس الثامن أولاطير ٦٦
بطليموس السابع إسكندر الأول ٦٧
سوطر الثاني ٦٨

obeikandl.com

بطليموس العاشر إسكندر الثاني ٦٩
بطليموس أولطيس ٧٠
كيلوباترا ٧١
المدة الرومانية ٧٣
المدة العربية أو الإسلامية ٧٥
إسكندرية القديمة ٧٩
في الكلام على آثار الإسكندرية ٨٥
(جزيرة فاروس القديمة) ٨٥
المنارة القديمة أو منارة البطالسة ٨٨
منارة العرب ٩٨
المينا الكبرى ٩٩
(في قصورها القديمة ومبانيها العمومية) ١٠٢
(في الكلام على المسلات والقيصريوم) ١٠٢
هيكل نبتون والتيمونوم ١٠٧
اللوشياس وسراياته ١١٠
الموزيوم (المتحف) ١١٢
دار الكتب ١١٥
السرابيوم ١١٨
عمود السواري ١٢٦
(سوما وقبر الإسكندر) ١٣٥

obeikandl.com

(اليانيوم والجمناز والأيبودروم الخ) ١٣٧
(الكهوف (الكتاكومب)) ١٤٠
(الصهاريج) ١٤٣
فهرس ١٤٥

obeikandl.com